

حكم الانتماء

إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية

بقلم

بكر بن عبد الله أبو زيد

الطبعة الثانية

مزيدة بخلاصة مهمة

مكتبة التوعية الإسلامية

للتحقيق والنشر والبحث العلمي

ت : ٥٨٦٨٦٠٥ بمصر .

طبعة عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع

[illegible]

طبعة مصر توزعها :

مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي .

للمراسلات // ص . ب : ١٧٤ بريد الأهرام.

هاتف : ٥٨٦٨٦٠٥ هاتف مصور : ٣٧٦٥٣٤٤

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة .
٩	قصة للمأمون .
٩	فائدة عن السبحة .
١٢	صياغة السؤال ، وهو موضوع الكتاب .
١٣	كلمة للنورسي .
١٦	مبحث مهم في لغة العلم (الاصطلاح) .
٢٠	سبعة مباحث بين يدي الجواب .
٢١	**المبحث الأول : الحزبية في العرب قبل الإسلام .**
٢٣	**المبحث الثاني : هدي الإسلام أمام هذه الحزبيات .**
٢٤	كلمة للبغدادي ، وبيانها .
٢٦	**المبحث الثالث : لا حزبية في صدر الإسلام .**
٢٨	**المبحث الرابع : انشقاق الفرق عن جماعة المسلمين .**
٣٤	**المبحث الخامس : منازل الفرق من جماعة المسلمين .**
٣٦	قِفْ على كلمة ابن عبد البر .
٣٧	**المبحث السادس : تساقط الفرق أمام جماعة المسلمين .**

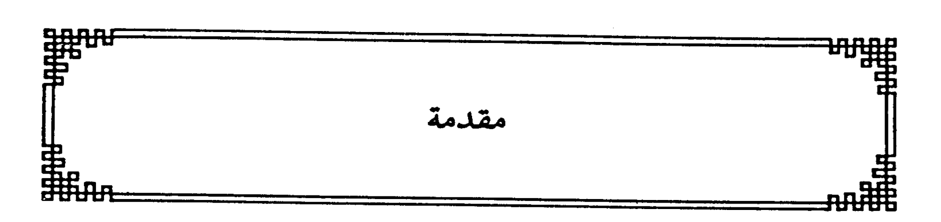
٤٠ الألقاب أمام نشوء أهل الأهواء.
٤٨ فائدة في أن صحة الاعتقاد توجب صحة الإدراك، ودليلها من القرآن.
٥٠ كلام مهم لابن القيم.
٥٣ المبحث السابع: جماعة المسلمين أمام المواجهات.
٥٤ قِفْ على بحث جامع لمآخذ أهل البدع.
٥٧ مباحث في الجواب عن سؤال المقدمة.
٥٩ الجواب عن سؤال المقدمة.
٦٣ الأصول والكليات الشرعية التي بُني عليها الجواب:
٦٤ ● الأصل الأول: التزام منهاج النبوة لا يخالف برسم ولا اسم.
٦٤ القسمة الثلاثية لحال المسلم.
٦٥ الدعوة إلى رابطة العلماء.
٦٦ من فقه البخاري في «صحيحه»، وشرح ابن حجر له.
٦٧ قاعدة في اختبار الدول.
٦٨ نقل طويل مهم عن الشيخ الإصلاحي.
٧٠ حديث حذيفة رضي الله عنه.
٧٤ ● الأصل الثاني: في منهاج النبوة.
٧٤ حديث «بدأ الإسلام غريباً»، وتخريجه، والمؤلفات فيه.
٧٥ ● الأصل الثالث: في مراحل الدعوة على منهاج النبوة.
٧٦ قِفْ على فوائد جوامع في التوحيد، وهي من أسرار القرآن العظيم.
٧٨ من أسرار القرآن أن الاعتقاد الحق سبب للعلم النافع.
٧٩ من أسرار القرآن أن الاعتقاد الحق سبب للعصمة من الخسران.
٧٩ أهل السنة يتفقون وإن اختلفت آفاقهم.
٨٠ الجماعات رد فعل لما تعايشه.
٨٢ نقل مهم عن شيخنا الشنقيطي رحمه الله تعالى.

٨٣ نقل مهم عن كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب رحمه الله تعالى.
٨٧ نقل مهم عن مصطفى المراغي رحمه الله تعالى.
٩١ مبحث مهم في وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٩٢ التصدي لدعوى فصل الدين عن الدولة.
٩٣ تلمس مواطن العلل في الأمة.
٩٤ ● الأصل الرابع: واسطة البلاغ.
٩٦ أشد آية على العلماء.
٩٧ نقل مهم عن الإصلاحي في العالم الداعية المتأهل، وبعض أخطاء الدعاة.
١٠٣ لا تقل: أسلمة المعرفة، ولكن قل: أسلمة العلماء.
١٠٣ ● الأصل الخامس: في عقد نظام الدعوة: شد آصرة التآخي.
١٠٥ ● الأصل السادس: في سمة المسلم، وعود إلى الألقاب المتقدمة (ص ٣٧).
١٠٧ نقل عن ابن القيم في أديان أهل الأرض.
١٠٨ نقل عن كتاب «حلية طالب العلم».
١١٢ ● الأصل السابع: في رسم المسلم.
١١٣ التجديد للدين.
١١٥ تنبيه على خطإ كبير.
١١٥ ● الأصل الثامن: في كمال الإسلام.
١١٦ ● الأصل التاسع: في الولاء والبراء.
١١٨ ● الأصل العاشر: التجمع على أساس منهاج النبوة.
١١٨ ● الأصل الحادي عشر: في مراتب الديانة.
١١٩ ● الأصل الثاني عشر: كل الطرق إلى الله مسدودة إلا واحدة.
١٢٠ ● الأصل الثالث عشر: في الأشخاص.
١٢٢ ● الأصل الرابع عشر: لا حلف في الإسلام.

١٢٤ ● الأصل الخامس عشر: عدم استصغار البدع.
١٢٤ ● الأصل السادس عشر: في المخالفة.
١٢٤ ● الأصل السابع عشر: في بناء الدين على الوحدانية.
١٢٥ ● الأصل الثامن عشر: في لزوم الجماعة.
١٢٦ حاشية في المؤلفات عن حديث الافتراق.
١٢٧ ضابط مهم للوصف بالفرقة.
١٢٩ تنبيهات.
١٣٠ كلام العدوي رحمه الله في التحزُّب.
١٣١ أصل التحزب دعوة فرعون لقومه.
١٣٢ استدلال لطيف على منع الاختلاف.
١٣٢ ● الأصل التاسع عشر: حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
١٣٥ **مضار الأحزاب على جماعة المسلمين.**
١٣٦ تحليل مفصل لآثار ممارسة التحزب ومدى تأثيرها في بعثرة العمل الإسلامي، وإيراد أربعين أثراً لذلك، منها:
١٣٨ لا عمل إلا بحزب.
١٤٠ بدعيتها.
١٤١ تحجيم الإسلام.
١٤١ ربقة الرمز.
١٤٢ انشطار الحزب الواحد.
١٤٣ محنة الأحزاب في بدن الإسلام.
١٤٣ مقاتل العمل الإسلامي.
١٤٤ الاعتقال الفكري.
١٤٥ الإرهاب الفكري.
١٤٥ خدمتها للأشخاص، والتمحور حول الذات.

١٤٦ خدمة الشعار الحزبي.
١٤٧ بعث حرب الكلمة.
١٤٨ إبادة الإخاء الإسلامي.
١٤٨ التنابز بالألقاب، وقِفْ على بعض مصطلحات اللمز المعاصرة.
١٤٩ قولهم: «نجتمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر...» إلخ: خطأ محض.
١٥٠ عقدة الاستعلاء الحزبي.
١٥٠ تعدد المناهج الفكرية.
١٥١ الموجب للحمد: منهاج النبوة.
١٥٣ النتيجة الحكمية للانتماء.
١٥٥ إلى طريق جماعة المسلمين.
١٥٦ أهداف الدعوة الأربعة.
١٥٧ الدعوة توقيفية في غايتها ووسيلتها.
١٦٠ نماذج من وسائل الدعوة.
١٦١ وسائل محدثة للدعوة.
١٦١ منها بدعة البيعة في الجماعات الإسلامية.
١٦٤ كلمات مهمة عن بعض السلف.
١٦٦ جهاز المراقبة على طريق الدعوة.
١٦٩ وختاماً.
١٧٠ بحث عظيم لابن القيم عن غربة الدين.
١٧٦ كتاب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى.
١٧٦ نقول مهمة عن «الإبانة».
١٧٨ تنبيه على المراد من البحث.

التنضيد والمونتاج: مكتبة الحسن للنشر والتوزيع - عمان - هاتف: ٦٤٨٩٧٥ - ص.ب ١٨٢٧٤٢



مقدمة

الحمـد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الله سبحانه قد جعلَ لكل شيءٍ قدراً، ولكل إرادةٍ وغرضٍ باعثاً، والداعي إلى هٰذا التقييد واجب الديانة؛ قال الله تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ويَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأُولٰئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وما في معنى هٰذه الآية الكريمة ـ وكلُّ القُرآنِ كَريمٌ ـ من نصوص الكتـاب والسنـة يشير إلى واجب التحمُّـل، فالأداء، والدعوة، والبلاغ، والاستنفار لطائفة من الأمة ليتفقَّهوا في الدين؛ طائفةٍ تكون هي الأمة التي يُحيي الله بها عمومَ الأمة.

والدين النصيحة: لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم؛ إذ لا يجوز أن يكون ما نحن فيه من أُمور المعاش مُسْتَفْحِلاً غَلَّاباً لديننا، شاغلاً

لنا عن أساس مهمَّتِنا: الدعوة إلى الله، والإنذار، والتبشير، والشهادة على الناس، والإصلاح، والنصح، والتذكير، والتبليغ، والجهاد في سبيل الله، وإظهار الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... ونحوها من الحقائق الشرعية التي تجمعها غاية واحدة: ظهور الدين وصيانته.

ومن لطيف ما يُسْتَحْضَرُ هنا ما لدى الإخباريِّينَ من أن عبدالله بن أبي السِّمْط أنشدَ بين يدي المأمون أبياتاً يمتدحه فيها، فلما انتهى عند قوله:

أَضْحَى إمامُ الهُدَى المَأْمونُ مُشْتَغِلاً
بِالدِّينِ والنَّاسُ بالدُّنْيا مَشَاغِيْلُ

قالَ المأمون: ما زدتَ على أن جعلْتَني عجوزاً في محراب، وفي يدها سُبحة[1]! أعجزتَ أن تقولَ كما قالَ جريرٌ في عمرَ بن عبدالعزيز:

فلا هُوَ في الدُّنْيا مُضِيْعٌ نَصِيْبَهُ
ولا عَرَضُ الدُّنْيا عَنِ الدِّينِ شاغِلُهْ؟!

وكان من مسارح النظر ما نراه نزيلاً في ساحات المسلمين من عوامل الانفلات والتغير، الضاربة في أعماق الأمة، السارية في مقوِّماتها كافة،

---

(١) السبحة للذكر بدعة هندية؛ كما ترى الحديث عن تاريخها مبسوطاً في كتاب «مساهمة الهند»، وهو بحث مهم.

وعن السبحة انظر: «الفكر السامي» للحجوي (٣ / ٥٢)، «التراتيب الإدارية» (٢ / ٢٨٣ و٢٨٦)، «الدين الخالص» للسبكي (٢ / ٣٤٣)، «السير» للذهبي (١ / ٦٢٣)، «الجراب الجامع» لكنون (ص ٢٤٧)، «مجلة مجمع اللغة بمصر» (٣٥ / ٢٩٣ ـ لعام ١٤٠٤هـ)، «السلسلة الضعيفة» للألباني (رقم ٨٣)، وفيها بيان شافٍ في بدعيتها للذكر.

الواصلة إليها بعدوٍّ من أنفسها وظَّفه العدوُّ الخارجُ عنها؛ لينفُث فيها عن طريقه مآربه منها.

ونرى أمام ذٰلك هِمَمَ شُدَاةِ الدعوةِ في الأمةِ لانتشالها، وحفظِ بيضَتِها.

ومنهـا دعوات تقول: إلى الإسلام... إلى الإسلام؛ لكن تحت شعـاراتِ الحـزبية والطائفية، التي بلغت في الانتشار والتعدُّد مبلغاً، ثم تفرَّقتِ الجماعةُ الواحدةُ منها إلى جماعاتٍ، وصارتْ شِيَعاً، وأَسَرَتْ نفسها في ربقـة (الـرمز)، وضيق (الشعار)، ومستحدَث اللقب الذي يكون في البداية كلمة، وفي النهاية نِحْلَة؛ يسري تيارها المتصاعد في الأمة، وفي الطبقة المتوثِّبة على وجه الخصوص.

ثم نرى كثيراً من المُقَرَّنين بأصفادِها، يترامَوْن في مجاهل الصِّراع والغليان الفكـريَّيْن، سالكين في الدفاع عنها والمقاومة من أجلها طرائق قدداً.

وعلى أعقاب ذٰلك تتابعت فتنٌ تغلي في مراجِلها، إذ انتفخت في الصدور البغضاءُ، وثار غُبار الوحشة والشحناء، وتراشقتِ الأقلام بكلماتٍ مسمومة على ساق النخوة والحميَّة، فكأن الحال تقول:

إذا أنــا لَمْ أَنْصُــرْ أَخِيْ وَهْـوَ ظَالِمٌ
عَلِي القَوْمِ لَمْ أَنْصُرْ أَخِيْ حِيْنَ يُظْلَمُ

وهٰذا الشقاق وحده كافٍ في إماتةِ ما في أفراد أي جماعة من قوة وبسالة.

فمَـنْ في كفِّـهِ منـهُـمْ قَنـاةٌ
كَمَـنْ في كَفِّـهِ مِنْـهُـمْ خِضَـابُ

وما نتيجةُ التدابُرِ إلا الضعفُ والتصدُّع والتناثر؛ قال الله تعالى:

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهٰكذا في كل وقت يُقْتَطَعُ من جسم الأمة فِرقَةٌ، حتى تأكلها الفِرَق، والآن تدور رحاها وبسرعة مذهلة، وهٰذا ما يقرره عدد من أرباب الأقلام المهتمين بالدعوة إلى الله تعالى (العمل الإسلامي) في دائرة الجماعات، أو الطلقاء على منهاج النبوة[1].

ومن هٰذا نرى أن طريق الدعوة إلى الله تعالى قد التوى على كثير من الناس، وتغير المفهوم في أفهامهم، وصاروا لا ينظرون إلى طريق الدعوة إلا بمنظار ما ينتمي إليه من الفِرَق، أو يعيش في مواجهته من الجماعات؟

ونرى أيضاً أن هٰذه الجماعات قد كَثُرت حولها المُباحثات، فهُضِم الحق حيناً، وانتُصِر له أحياناً، وصار الناس في أمر مَرِيجٍ، بل في حالة نزع مؤلمةٍ، مضطربين اضطرابَ الأرشيَة في الأطويَة، فصار لا بد من البيان:

وَكَـانَ الـنَّـاسُ في لَبْسٍ عَظِيْمٍ
فَجَـاؤوا بالـبَـيَانِ فأَظْـهَـرُوهُ
وكَـانَ النَّـاسُ في جَهْـلٍ عَظِيْمٍ
فَجَـاؤوا بِالـيَقـينِ فأَذْهَـبُـوهُ

(١) سيأتي - إن شاء الله تعالى - في مبحث «مضارّ الأحزاب» ذكر جملة منها.

فأقوامٌ ابتلعهم تيار التغريب لمّا لم يجدوا أمامهم رؤية صحيحة بقدر ما في مواجهتهم من واقع، وأقوام كسبتهم جماعة إسلامية دون الأخرى، ففرحوا بنصر الله . . . إذ دخلوا تحت الشعار الخاص في المنحنى الحزبي (الانتماء)، (الولاء)، (السمع والطاعة)، (تصحيح المسار)، وقوم يترامَوْن على أبواب الأحزاب فتخفق أقدامهم في أجواف الجماعات بين الولوج والخروج من جماعة إلى أخرى.

وقد كان السلف - رضي الله عنهم - ينهَوْن عن التلون في دين الله؛ كما روى بعضَ الآثار عنهم ابنُ بطَّةَ العُكْبَرِيّ الحنبلي في «الإبانة»[1].

وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله؛ يسألون أين الطريق؟

ومن هنا صار السؤال الكبير والخطير معاً عن حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات المعاصرة العاملة في الحقل الإسلامي.

ويمكن تصوير هٰذا السؤال بصفة تجمع الواردات على ما يلي:

هل هٰذه الأحزاب والجماعات الإسلامية القائمة في عصرنا مرفوضة سنداً ومتناً، وأنها امتداد للفرق والطوائف التي انشقَّت عن جماعة المسلمين بعد عصر الخلافة الراشدة، وإن اختلفت في اللّقب والشعار، وشيء من التخطيط والمنهج؟ وما هو الوجه الجامع إن كان؟

أو أنه جدَّت أمورٌ، وحالت أحوالٌ، تجعل الجماعات هي المُتَنَفَّس الذي ينفذ منه المسلمون إلى إقامة الإسلام، والخلافة فيه، والعودة بالمسلمين إلى مقتَضَيات وحقوق الشهادتين (لا إلٰهَ إلا الله محمدٌ رسول

(1) (1 / 190 و2 / 504 - 506).

الله)؟ وأن الفرق الإسلامية في الماضي، المنشقَّة عن جماعة المسلمين، كانت ظالمةً؛ لأنها مبنيَّةٌ على الانحرافِ عن الصراطِ المستقيم، بما تَبَنَّتْهُ من آراء وأهواء ضالَّةٍ، ولأنها كانت تعيش في وسط ولاية إسلاميةٍ، شريعةُ الله فيها نافذةٌ؛ بخلاف الأحزاب والجماعات المعاصرة، فهي في وسط حكوماتٍ وعروشٍ، هي في الغالب متحَلِّلة من تحكيم شريعة الإسلام، آبقة من حضانته، مستعبدة لكل طاغية من أعدائه، وإن كانت معلنة للإسلام من وجه؛ فهي تضاده من وجوه عمليةٍ معلنةٍ[1]، منتجةٍ على حد ما تصوره بديع الزمان النُّوْرَسِيّ (ت ١٣٧٩هـ) - رحمه الله تعالى - إذ قال عن واقع الحال المعاصرة:

«البلاد الإسلامية حبلى، وستلد الإلحادَ يوماً ما، والبلادُ الأوروبيَّة حبلى، وستلد الإسلامَ يوماً ما».

فالمسلمون في واقعهم يجتازون مرحلة (التِّيه) في غربتهم الثانية، والعداوة المرصودة لإسلامهم في هٰذه الغربةِ أنكى وأشد من العداوة التي كانت مرصودة له في طريق غربته الأولى[2]، إذ إن الاستعمار رغم أنه يسير تحت عَلَم واحد؛ فقد بدَّد جسم الأمة، ممزقاً المشرق إلى مشارق، والمغرب إلى مغارب، في دويلات متآكلة بالمنطقة الإسلامية، أضحى المسلمون على أنقاضها فريسة ما استشرى فيهم من الإشراك، والفساد، والذل، والهوانِ، والخواءِ، والحروب الفكرية القائمة على أشدِّها،

---

(١) انظر بحثاً مهماً في هٰذا في «مجلة البيان» (ص ٥١ - ٥٢ / العدد ١٣ / لعام ١٤٠٨هـ).

(٢) انظر كتاب «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب.

والأزمات المتلاحقة من كل جانبٍ، ففي كلِّ خلية من خلايا الحياة بلية ليس لها من رادعٍ، تضرب فارهة في قناة المسلمين بأنواع السلاح: وثنية، وإلحاد، وتحلل في الأخلاق، وجور في النظام، وشذوذ، وضياع في موجات عارمة من تيارات التغريب، وعمليات التسميم؛ عزلاً للدين عن الحياة، وتقليصاً لظلِّ الإسلام عن الدار، فيتهاوى من شاء الله من المسلمين في جنباتها، مفرزة أفراداً في عقول لا دينية علمانية، يعيشون في أحشاء الأمة، و يديرون في الغالب دفتها، ويمهّدون لزحف مهول في علمانية ساحقة، يشتغل فيها كباكب من أدعياء وأعداء لضرب الإسلام وتصفيته من العاملين في كل مكان(١).

وأمام هذه الهجمات الشرسة، والواقع الحزين للمسلمين، فالمتأهلون من أهل العلم في قعود وانحسار عن الساحة وما يجري فيها؛ إلا من شاء ربُّك

وعليه: هل وسيلة الإنقاذ في عقد الأحزاب، أم ماذا بعد؟!

وأي حزب تسمح الشريعة بالانتساب والانتماء إليه؟؟

وما هي جماعة المسلمين التي انشقت عنها هذه الجماعات؟ وأين هي؟ وما هي سماتها ورسومها؟

وهل يمكن تهذيب هذه الجماعات لتؤول إلى جماعة واحدة، فيُئال إليها؟ أو إلى هجرها؟ أو إلى سابلةٍ رفَعَ الإسلامُ سمْكها فسوَّاها، ورفض ما سواها، يدين المسلم بها ربه، ويلقاه عليها؟؟

---

(١) انظر «العلمانية» لسفر الحوالي.

هٰذا هو السؤال الذي يطرح نفسه، ويبحث المسلم عن الجواب عليه بحثَ شحيحٍ ضاع في التُّرب خاتمُه، مؤسَّساً على الأدلة المحكمة من الكتاب والسنة والتصور والرؤية الصحيحة لواقع الفرق المعاصرة، حتى يقول كما قال أبو بكر - رضي الله عنه - حين تدلُّه المداولة مع الصحابة - رضي الله عنهم - على سُنَّة:

«الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا ديننا».

فصار من المتعيِّن على أهل العلم إيضاح الجواب عن هٰذا السؤال؛ نصحاً للأمة، واستبقاءً على روح الإسلام وجماعة المسلمين من أدواء الانحراف؛ ليبقى الأمر على الاستقامة؛ كما أوصى الله نبيَّهُ محمداً ﷺ:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وبها أوصى أُمَّةَ نبيِّهِ ﷺ، فقال سبحانَهُ:

﴿فَٱسْتَقِيْمُوا إِليهِ﴾ [فصلت: ٦].

وفي «صحيح مسلم» وغيره أن رجلاً طلب من النبي ﷺ أن يوصِيَهُ، فقال له ﷺ:

«قُلْ آمَنْتُ باللهِ، ثم اسْتَقِمْ».

فجمَعَ لهُ في قوله: «قل آمنتُ بالله» معاني صلاح الاعتقاد، وفي قوله: «ثم استقم» معاني صلاح العمل، وعلى هٰذين الإصلاحين مدارج قيام أمة الإسلام.

ولزوم هٰذا الإيضاح يتصل من الإسلام بحبل وثيق، وهو من واجب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فليس أجنبياً، بل له نظائر

في الشرع الشريف، دأب على بيانها أهلُ العلم في القديم والحديث؛ كما في بيان حال الرواية، والشاهد، والداعية إلى ضلالة، وأهل الأهواء والبدع في الـدين، والفِـرَق، وبيان أحـوال المفتين، والقضـاة، والمؤلفين، وغيرهم . . . بذكر ما يندرج في سِيَرِهم من الموانع التي تحول دون الاقتداء والأخذ بمذاهب وآراء وأخبار أقوام دون آخرين . . . وهٰكذا من أنواع البيان والنصح للأمة.

وإنَّـه لبسبيل مُقِيْمٍ في ظل الطائفة المنصورة؛ إماطة للدخيل عن المسلمين؛ كما يُماط الأذى عن الطريق.

وإن من أدق ما يُلْتَفَت إليه هنا هو التزام لغة العلم بمعنى الأسماء والمصـطلحات الشرعية، حتى يستطيع السامع والباحث أن يعرف مدى الـربط بين المـاضي والحـاضـر، ولا يصاب بانفصام عن ماضيه بجميع مقوِّماته ومواقفه.

ولا يُبْعِدُ بالأفهام مثلُ قَلْب لغة العلم و(الشعارات) المستحدَثة، لا سيما تلك التي يُتَمَسَّحُ بها، ويُكْتَسَب العديد ببريقها مع خوائها؛ كما قال ابن الطراوة في وصف أبي علي الفارسي النحوي:

«ترجمة تروق بلا معنى، واسم يَهُول بلا جسمٍ».

والتي إذا نظرتَ فيها؛ رأَيْتَها تعني منهج الفِرَق في القديم في جُلِّ مضـامينِهـا، أو بعْضِها، فكم تأبَّطَتْ مِن أفكارٍ، وآراء، ومسالكَ، يأْباها الشرع المطهَّر.

وما قلب لغة العلم، بل لغة الدين؛ إلا تكليف بأمر غير طبعي، وهو

شبيه بإتيانِ البيوت من ظهورها، وإمراض اللغة مرضٌ في الدين.

وعليه؛ يجب أن يكون النظر والبحث وترتيب الحكم في قالب لغة العلم لا غير.

فَلْنُعَبِّرْ بـ (الفرق) لا بشعار الجماعات الإسلامية؛ لأن جماعة المسلمين واحدة لا تتعدد؛ «على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -»، وما عدا جماعة المسلمين فهم من (الفرق) من جماعة المسلمين[1].

وَلْنُعَبِّرْ بالبدعة أمام السنة.

وأهل السنة والجماعة أمام أهل البدع والأهواء.

والدعوة إلى الله، والجهاد، والنفير، وتنصيب الولاة؛ بدلاً من (الانقلاب الروحي)، (الانقلاب السياسي)، إذ الإسلام دين رحمة وهداية، لا عسف فيه ولا جور، وبدلاً من (الانتفاضة) إذ لا ينتفض إلا العليل؛ كالمحموم، والرِّعديد.

والدعوة، والإنذار، والبلاغ؛ بدلاً من (التحرك) و(الحركة الإسلامية)؛ فإن التحرك يُطلق في لسان العرب على كل متحرك، ولو لم يبارح مكانه، ولم يكن ذا روح؛ كتحرك الأشجار.

ولنعبِّر بمراتب الديانة: الإسلام، الإيمان، الإحسان؛ بدلاً من (الضمير)، (الوجدان)، (الإنسانية)...

وهٰكذا في سلسلة يطولُ استعراضها...

---

(١) ويأتي لهٰذا البحث مزيد بيان - إن شاء الله تعالى - في المبحث السادس.

ويا لله كم في هٰذه المصطلحات المولَّدة من جناية على العلم وحقائقه، وإثارةٍ للشبهات، وانفصامٍ عن مآثر الأسلاف، وبعثٍ للخصومات، وهٰكذا[1].

وكما يكون قلب لغة العلم من جهة المباني؛ كما رأيت، فإنه يكون أيضاً من جهة المعاني؛ بالتعبير عن البدع والأهواء الضالة. . . بالعبارات الإسلامية، والمصطلحات الشرعية، وهٰذا صنيع إخوان الصفا في «رسائلهم».

وفي كل واحدة من الوجهتين جناية على الشريعة، فالأولى (لباس ضال)، والثانية فيها تضليل[2]، إذ أخذوا مخَّ الباطل، وكسوه لِحاءَ

(1) انظر «المذهبية الإسلامية والتغيير الحاضري» لمحسن عبدالحميد (ص ١٧ ـ ٢٢ و١١١ ـ ١٢٢).

وفي كتاب «ربانية لا رهبانية» لأبي الحسن الندوي (ص ٨ ـ ٩) مبحث مهم في هٰذا، وفي خصوص (مصطلح التصوف)؛ بما يستحق أن يقال: إنها كلمة حق، لكنها تعني أنواعاً من البواطيل، بحكم ما قرره بعدُ من تزيين مسالك الصوفية، وأن العقدة بينهم وبين خصومهم هٰذا الاصطلاح (التصوف)، فأَطَبَّ بهٰذا زكاماً، لكنه أحدث جذاماً بتمجيد غلاة المتصوفة، وأنهم هم الذين حفظوا الإسلام؛ كما في (ص ٨ و١٠ و١٣ و١٩ و٣٤ و ٣٦ و٤١ و٤٢ و٤٥ و٥٢).

أذكر ذٰلك تحذيراً للمسلمين مما في هٰذا الكتاب، وللشيخ قدم صدق في خدمة الدعوة لا تنكر، وانظر كتابه «سمات الداعية» (ص ١٤ ـ ١٥)، ففيه بيان مهم عن جناية هٰذه المصطلحات على العلم، وأتيت على جملة من هٰذا في «فقه النوازل» الجزء الأولْ، وفي «معجم المناهي اللفظية».

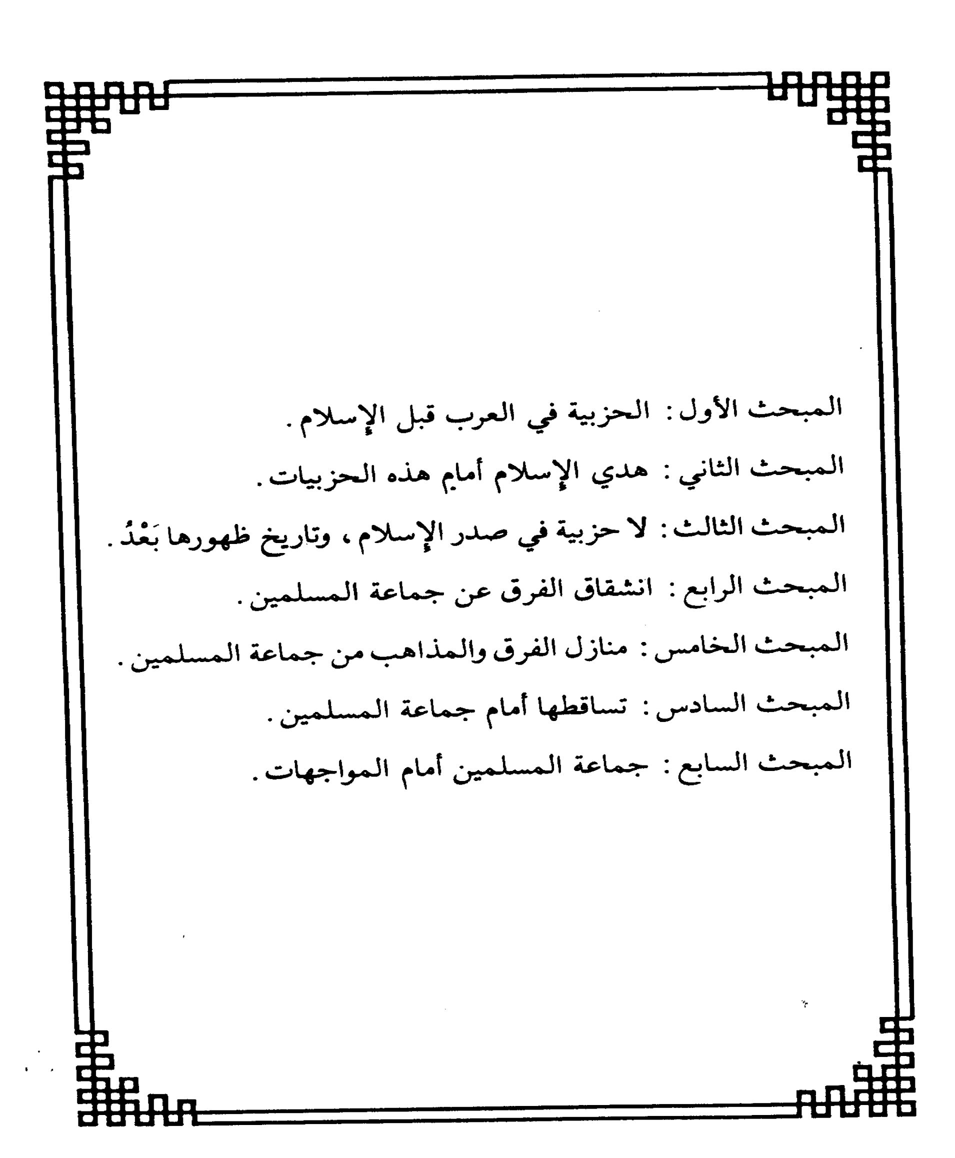
(2) انظر: «الصفدية» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (١ / ٢٣٠ و٢٣٧)، و «بغية المرتاد» له (ص ٢١٨ و٢٣٥).

الشريعة.

وقبل الجواب رأيت من الضرورة التمهيد أمامه بأبحاث سبعة، وإن كان الفصل سيطول بين السؤال والجواب، لكن التمهيد بين يدي المسائل المهمة مسلك شرعي؛ كما هو معلوم[1]، وهي:

ooooo

(١) بينت ذلك في مقدمة «فقه النوازل» (القضايا المعاصرة).



المبحث الأول: الحزبية في العرب قبل الإسلام.

المبحث الثاني: هدي الإسلام أمام هذه الحزبيات.

المبحث الثالث: لا حزبية في صدر الإسلام، وتاريخ ظهورها بَعْدُ.

المبحث الرابع: انشقاق الفرق عن جماعة المسلمين.

المبحث الخامس: منازل الفرق والمذاهب من جماعة المسلمين.

المبحث السادس: تساقطها أمام جماعة المسلمين.

المبحث السابع: جماعة المسلمين أمام المواجهات.

المبحث الأول

الحِزْبِيَّةُ في العَرَبِ قَبْلَ الإسلامِ

كانت الرابطةُ الجامعةُ للتعايُشِ مبنيَّةً على: سلاسلِ النَّسبِ، ومحيطِ الوطنِ، وصِبْغَةِ اللونِ، ونوعِ الحرفةِ والصناعةِ، ووحدةِ اللغةِ، وكانت في جزيرة العرب تقومُ على النظامِ القَبَلي والعصبيَّةِ القَبَلِيَّة في حاضرتهم وباديتهم، وذلك في إطار وحدة الدم، ولحمة النسب في جد مشترك.

وتتحزَّب القبيلة في مكوِّناتها ومقوِّمات حياتِها تحت قيادة سيدها الذي تدين له بالانتخابِ أو الاقتراعِ أو الغلبة.

والحزب الأم لهذه التجمُّعات القبلية قريش، التي كانت فيها السقاية، والحجابة، والرفادة، والندوة، واللواء. . . إلى غير ذلك من مناصبها الدينية والحربية والاجتماعية، وتشترك مع غيرها في النصرة والمؤاخاة، والدفاع عن الحقوق، ودفع الهجوم، والأخذ بالثأر.

وربَّما يظهر في ذلك أحزاب من نمط آخر؛ على أساس من المصالح الدنيوية وحقن الدماء، ومنها حِلْفُ المُطَيِّبين، ولَعقة الدم، وحِلْفُ الفُضول. . .

وعلى الرغم من هٰذا؛ فلم يكن في تلك التجمعات القبلية ما يجري فيها على الشمول لجذْم عدنان مثلاً، أو قحطان، أو قُضاعة، بل في حدوده الضيقة من الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ والفصيلة، اللهمَّ إلا في مجال المفاخرات؛ كفخر عدنان على قحطان، والقيسية على اليمانية . . . وهٰكذا.

ومهما كان من اتساع الدائرة أو ضيقها؛ فإن قوامها العصبية، وهي كلمة تدل على الانقسام، والتفرُّق، والصراع القبلي الممزِّق، القائم على الاعتداد بالنسب، ووحدة القبيلة، فهي عصبية قبيلة أمام قبيلة أخرى، وعصبية شعب أمام آخر. . . وهٰكذا، مجموعة عصبيات نتاجها التهارش والهرج.

وهي تشابه في النتيجة ـ إلى حد بعيد ـ تلكم الصيحات المعاصرة في وسط الديار الإسلامية إلى الوطنية، والقومية، والبعثية. . . ؛ إلا أن عصبيات ما قبل البعثة فيها من الطُّهر والعفة والأَنَفَة ومكارم الأخلاق ما يفوق ما لدى أُولاءِ الأخلاط والأوباش المجتمعين باسم القومية ـ زعموا ـ، فلا هم للإسلام نصروا، ولا للنعراتِ الغُثائية كسروا.

ooooo

المبحث الثاني

هَدْيُ الإسلامِ أمامَ هٰذهِ الحِزْبيَّاتِ

كانت هٰذه الحركة المَوَّارَةُ من العصبيَّات القبليَّة تقومُ عليها أساسيَّات الحياة في قبائل جزيرة العرب، فواجه النبيُّ ﷺ هٰذا الواقع بالنقلة إلى رحم الإسلام، وأخوة الإيمان، وكلمة التقوى، وتعدَّدت لذلك النداءات؛ قالَ تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الذي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً ونِساءً واتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءَلُونَ بهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عليْكُمْ رَقِيْباً﴾ [النساء: ١].

وقالَ تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بهِ نُوحاً. . .﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ أَقِيْمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيهِ كَبُرَ على المُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إليهِ﴾ [االشورى: ١٣].

وواجهـه ﷺ أيضاً بالنقلة إلى وحدة الدولة الإسلامية، تحت لواء الإسلام، عليه يعقد الولاء والبراء، وتحت سلطة شرعية عامة واحدة، ذات

شوكة ومَنَعة، تُعقد لها البيعة، ويُدانُ لها بالسمع والطاعة، فلا يجوزُ لمسلم أن يبيتَ ليلتَهُ إلا وفي رقبته البيعةُ لها.

وعليه؛ ذابتْ تلك الرَّوابط، وتصدَّعَتِ العصبيَّةُ القَبَلِيَّة، وسدَّ النبيُّ ﷺ المنافذَ الموصلةَ إليها، وبقي الرابطُ الوثيقُ؛ لواء التوحيد، فعليه يُعْقَدُ الولاء والبراء، والتعاون والإخاء، ولهٰذا لما قال أحد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم في غزوة بني المصطَلِق: يا للمهاجرين! وقال الآخر: يا للأنصار! صرخَ بهِمُ النبيُّ ﷺ، قائلاً:

«أبِدَعْوى الجاهِلِيَّةِ وأنا بينَ أظْهُرِكُم، دَعُوها فإنَّها مُنْتِنَةٌ»[1].

وهٰكذا؛ كلما بدا مطهرٌ من مظاهر التحزُّب والعصبية؛ كبَتَهُ النبيُّ ﷺ، حتى لحقَ بالرَّفيقِ الأعلى، ولا حزبيَّةَ، ولا طائفيَّةَ، كلُّ مسلم يحتَضِنُ كل الإسلام، ويحتضنُ جميع المسلمين.

قال البغداديُّ ـ رحمه الله تعالى ـ:

«كانَ المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه؛ غير مَن أظهرَ وفاقاً وأضمرَ نفاقاً»[2] ا. هـ.

وهٰذه الكلمة مِن العلامة البغدادي ـ رحمه الله ـ استقرائية وتعبير دقيق، فإن المسلمين قاطبةً كانوا على منهاج النبوة، وليس ثمَّة إلا كافرٌ

---

(١) متفق عليه من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ.

وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٧٠ و٧٢).

(٢) «الفرق بين الفرق» (ص ١٢).

وانظر مبحثاً مهماً في «معالم في الطريق» بعنوان: (جنسية المسلم) (ص ١٢٦ ـ ١٤٧).

ظاهـراً وباطناً، أو كافرٌ باطناً مسلم ظاهراً، وهٰذا الصنفُ هم المنافقون أصحـاب الـدرك الأسفل من النار، فهم يكوِّنون حزباً معارِضاً بكلِّ دسٍّ خبيثٍ، فمَن أخـذ بالـظاهـر؛ فهُم سابقـة التحزُّب والحزبيَّة، ومَن أخذ بالحقـائقِ؛ فهُم العـدوُّ المـاكر في عُرضِ الدولة الإسلاميَّةِ، وصفاتُهم يُخْشَى منها على أهل القبلة، وانظر إلى جمل من معارضاتِهم وظواهر عدائهم:

فأول ذٰلـك في غزوة أحـد، ثم في بني قينقاع، ثم في شأن بني النضير، ثم في زواج النبيِّ ﷺ من زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، ثم في واقعـة الإفـك، ثم تطاولهم إلى تأسيس مغـارة لنفـاقهم (مسجد الضرار)، ثم تخلُّفهم عن غزوة تبوك. . .

وهٰكذا من وقائع الشغب والأذى التي صقَلَتِ المسلمين، وأكسبتهم زيادة في الإيمـان، ودفعـةً في عزائمَ لا تعـرِف الهـزائم، وألبس الله بها المنافقينَ لباس الذِّلَّة والهونِ، فهتك الله أستارهم، وفضح دخولاتهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

ooooo

المبحث الثالث

لا حِزْبيَّةَ في صدْرِ الإسلام
وهل تحرَّكت الحِزْبيَّةُ في العَصْرِ الرَّاشِدي؟

بوفاة النبيِّ ﷺ وقع الخلاف فيمَن يُنصبُ إماماً للمسلمينَ وخليفة لرسول رب العالمين، فتُعقد له البيعة على الإمامة العامة، ذات المنعة والشوكة؛ إنفاذاً لأحكامِ الإسلام، ورعاية لحرمات المسلمين وضروريات حياتهم، فحصل اجتماعُ السَّقيفة - سقيفة بني ساعدة - من سادات المهاجرين والأنصار، لكن تحت وضح الدليل والنص من النبيِّ ﷺ تم الاختيار لأبي بكر - رضي الله عنه - خليفة للمسلمين، فانعقدت له البيعة بالنص والإجماع، وتناثرت في جانب ذلك كلماتٌ من بعض الهاشميِّين، وأخرى من بعض الأوس، ومن الخزرج، ومن المهاجرين، لكنها تلاشت وتقلَّصت أمام قيام النص والبيعة بالإجماع، وهٰذا دأب الصحابة - رضي الله عنهم - في الانقياد لحكم الشرع في قول الله تعالى وقول رسول الله ﷺ، فانقادت لأبي بكر - رضي الله عنه - الرقاب، وانتظمت الملة، واجتمعت الكلمة، وسكنت الثائرة، وطابتِ القلوب وهي بالإيمان عامرة.

وهٰكذا على امتداد خلافته - رضي الله عنه - سوى ما حصل من أمر الرِّدَّة التي قهرها - رضي الله عنه - بقتالِ أهلِها، حتى استتبَّتْ وحدةُ

الكلمة، وفاءَ الناس إلى دين الله، وكانت يداً له في الإسلام ِ تُذْكَر كلَّما ذكر أبو بكر - رضي الله عنه -.

ثم تسلَّمَ الخلافةَ من بعده عمر - رضي الله عنه - وكانت السبُلُ له ممَهَّدَةً، فشهد عصره من الفتوحات واتساع رقعة الإسلام الأمر العجاب.

ooooo

المبحث الرابع

انْشِقَاقُ الفِرَقِ عن جَماعةِ المسلمينَ[1]

وما زال الأمر كذلك حتى انكسَرَ قُفل الفتنة الكبرى، فتنفستِ الفتنة بمقتل أمير المؤمنينَ عمر ـ رضي الله عنه ـ شهيداً عام (٢٣ هـ) على يد عِلْجٍ مجوسيٍّ فاجر في دينه، لا رحم الله فيه مغرز إبرة.

ثم لطف الله بالمسلمين، فتمَّت البيعة لأمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فسار ـ رضي الله عنه ـ بالناس على سيرةِ صاحبيهِ أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

لكن عبث العِلْجِ المجوسي كدَّرَ صفو الحياة، وتفتَّحت أبواب الهرج والمرج، ونشطت الدعوات السرية التي كانت تُظْهِرُ الوفاق وتضمِرُ النِّفاقَ، وكان متولِّي كبرها الطَّاغيةُ ابنُ السوداءِ عبدُ الله بنُ سبأ اليهودي المتمسلم، فنَفَذَ عدوُّ الله إلى الخلافة بلَبوس الدين، فشهر القول بفرض إمامة علي ـ رضي الله عنه ـ، والبراءة من أعدائِه، فسعى عدوُّ الله يحرِّك

---

(١) انظر بحوثاً مهمة في تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية في «الاعتصام» للشاطبي (١ / ١٧ ـ ١٨)، «سير أعلام النبلاء» (١١ / ١٣٦ ـ ٢٣٧)، «الصواعق المرسلة» (١ / ١٤٧ ـ ١٥١) مهم، «تهذيب السُّنن» (٧ / ٦١ ـ ٦٢)، «إغاثة اللهفان» (٢ / ٢٦٩).

الفتنة بظهور عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على عثمانَ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وهو في حقيقة حاله يريد ظهور الأمة على الخليفتين، بل من الإسلام.

وهكـذا استمـرَّ في تأجيجِ الفتن، والنفخ بها في الآذان، وتكثير سوادِها، وما زال عدوُّ الله يسعى في الأرض فساداً حتى تم مأربه الخبيث بمقتلِ أميرِ المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ شهيداً صابراً محتسباً عام (٣٥هـ).

لكن رَأَبَ مِن صدعها تمامُ البيعة للخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ؛ إلا أنه واجه انقساماً حزبياً في الأمة إلى فرقتين.

وهكذا استمرَّت الأمة في صراع دارت فيه رحى الحرب في صِفِّينَ، والجَمَـلِ، وعليٌّ ـ رضي الله عنـه ـ يعيش بين حارِّها وقارِّها، حتى قُتِلَ مظلوماً في رأس عام (٤٠هـ).

ثم تمتِ البيعة لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ بعد نزُولِ الحسنِ بنِ عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن الخلافة؛ حقناً لدماءِ المسلمين، ومراعاة لجمع شمل الأمة.

وهكذا تمَّ عصر الخلافة الراشدة، ودخلت الولاية العامة للمسلمين في بني أمية.

هذه جمل في داخلها تفاصيل يعرفها مَن درس التاريخ والسير.

ثم أخـذت (الأحـزاب) و (الجمـاعات) و (الطوائف) مساراً آخر؛ ينشرها قَوَمَتُها بمذاهِبَ فكريةٍ عَقَدِيةٍ تحت ألقاب أربعة:

١ ـ القدرية . ٢ ـ الشيعة .

٣ ـ الخوارج . ٤ ـ المرجئة .

ثم تشعَّبت هي نفسها، ودارت الصراعات في المذهب الفكري الواحد، في قوالب من التفرق والاختلاف الذي كان دليلاً على نبوَّة محمدٍ ﷺ في قوله ـ عليه الصلاة والسلام[1] ـ:

«إنَّ أهل الكتابين افترقوا في دينِهم على اثنتين وسبعين ملةً، وإن هٰذه الأمة ستفترِقُ على ثلاث وسبعينَ ملةً ـ يعني: الأهواء ـ كلُّها في النارِ إلا واحدةً، وهي الجماعة، وإنه سيخرُجُ في أمَّتي أقوامٌ تَجارَى بهِم تلكَ الأهواءُ كما يَتجارى الكَلَبُ بصاحِبِهِ، لا يَبْقى منهُ عرقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخلهُ».

رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم.

وما كل واحدةٍ من هٰذه الفرقِ إلا شوكةٌ في عُرْضِ الدولة الإسلامية؛ تهدُّ من كيانها، وتُصَدِّع تماسكَها، وتبعْثِرُ وحدتَها.

ومن نظر في كتب الملل والنحل والمذاهب والفرق على مدى العصور والأزمان؛ رأى أنها مع تفريقِها ترتبط بتلك الأصول، ولو في النتائج والغايات.

قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الاعتصام» (١ / ١٧ ـ

---

(١) لهٰذا الحديث ألفاظ أخرى، انظرها مع ذكر مَن أخرجها في كتاب «أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى» (ص ٣٤ ـ ٣٦)، وفي هٰذا الكتاب فقه عظيم للاعتقاد، فننصح به.

١٨):

«ثم استمرَّ تزايُدُ الإسلامِ ، واستقامَ طريقهُ على مدَّةِ حياة النبي ﷺ ، ومن بعد موته ، وأكثر قرن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى أن نبغتْ فيهم نوابِغُ الخروج عن السنَّة ، وأصْغَوْا إلى البدع المضلَّةِ ؛ كبدعة القَدَر ، وبدعة الخوارج ، وهي التي نبَّه عليها الحديث بقوله :

«يقتُلُونَ أهـلَ الإسلام ، ويَدَعونَ أهل الأوثانِ ، يقرؤون القرآنَ ؛ لا يجاوزُ تراقِيَهُم» .

يعني : لا يتفقَّهون فيه ، بل يأخذونه على الظاهر ؛ كما بينه حديث ابن عمر الآتي بحول الله ، وهٰذا كله في آخر عهد الخلافة .

ثم لم تزل الفرقُ تكثُرُ حسبما وعدَ بهِ الصادقِ ﷺ في قوله :

«افتـرقَتِ اليهـودُ على إحدى وسبعينَ فرقةً ، والنَّصارى مثلُ ذٰلك ، وتفتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً» .

وفي الحديث الآخر :

«لَتَتَّبِعُنَّ سنن مَن كان قبلَكُم شبـراً بشبرٍ ، وذراعاً بذراعٍ ، حتى لو دَخَلوا في جُحْر ضبٍّ ؛ لتَبِعْتُموهُم» .

قلنا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى؟

قال : «فمَنْ ؟ !» .

وهٰذا أعمُّ من الأول ، فإن الأول عند كثيرٍ من أهلِ العلم ، خاص بأهـل الأهـواءِ ، وهٰـذا الثاني عام في المخالَفاتِ ، ويدلُّ على ذٰلك من

الحديثِ قوله :

«حتى لو دَخَلوا في جُحْرِ ضبٍّ؛ لاتَّبَعْتُموهُم».

وكلُّ صاحب مخالفة؛ فمِن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويحضُّ سُؤَّالَهُ - بل سواه - عليها، إذ التـأسِّي في الأفعالِ والمذاهِبِ موضوعٌ طَلَبُهُ في الجِبِلَّةِ، وبسببِـهِ تقـع من المخـالِفِ المخـالفـةُ، وتحصـلُ من الموافق المؤالفةُ، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين.

كان الإسـلامُ في أولـه وجِدَّتِه مُقاوِماً، بل ظاهراً، وأهله غالبون، وسـوادهم أعـظم الأسودة، فخلا مِن وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء والناصرين، فلم يكن لغيرِهم - ممَّنْ لم يسلُكْ سبيلَهم، أو سلَكَهُ ولكنَّه ابتدعَ فيه - صولةٌ يعظُمُ موقعها، ولا قوة يضعف دونها حزبُ الله المفلحون، فصار على استقامة، وجرى على اجتماع واتِّساقٍ، فالشاذُّ مقهورٌ مضطهَدٌ، إلى أن أخذَ اجتماعهُ في الافتراقِ الموعود، وقوته إلى الضعف المنتظر، والشـاذُّ عنـه تقـوى صولتُـه ويكثـر سواده، واقتضى سرُّ التأسِّي المطالبةَ بالمـوافقةِ، ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالبت على سوادِ السنَّةِ البدعُ والأهواء، فتفرَّقَ أكثرهم شيعاً، وهٰذه سنَّةُ الله في الخلق؛ أن أهلَ الحق في جنبِ أهلِ الباطل قليل؛ لقوله تعالى :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣].

وقوله تعالى :

﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣].

وَلِيُنْجِـزَ اللهُ ما وعد به نبيَّه ﷺ مِن عَوْدِ وَصْفِ الغُربةِ إليه، فإن الغربة

لا تكون إلا مع فَقْدِ الأهل أو قلَّتِهم، وذلك حين يصيرُ المعروفُ منكراً، والمنكرُ معروفاً، وتصيرُ السنةُ بدعةً، والبدعةُ سنَّةً، فيُقام على أهل السنَّة بالتَّثْريبِ والتَّعْنيفِ ـ كما كان أولاً يقام على أهل البدعة ـ طمعاً من المبتدعِ أن تجتمـعَ كلمة الضُّلَّال، ويأبى الله أن تجتمِعَ حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها ـ على كثرتها ـ على مخالفة السنَّة عادةً وسمعاً، بل لا بدَّ أن تثبُتَ جمـاعة أهل السنة، حتى يأتي أمر الله؛ غير أنها ـ لكثرة ما تُنَـاوِشُهُمُ الفـرقُ الضـالَّـةُ، وتُنَـاصِبُهُمُ العـداوةَ والبغضـاءَ استـدعاءً إلى موافقَتِهم ـ لا يزالونَ في جهادٍ ونزاعٍ، ومدافعة وقراعٍ؛ آناء الليل والنهار، وبذلك يضاعِفُ الله لهم الأجر الجزِّيل، ويثيبهم الثواب العظيم» ا. هـ.

وأمام هٰذا لا بدَّ من إلماعة تعطي فكرة مختصرة عنها بأوعيتها الشاملة:

١ ـ السياسية. ٢ ـ العَقَدِية.

٣ ـ السلوكية. ٤ ـ العصبية الفروعية.

وعن ارتباطِها الزَّمني؛ لما له من مدلول مضادٍّ لها، والتي لم تبدأْ إطلالتُها إلا في أواخر النصف الأول من القرن الهجري، وبه يظهر الارتباط العميق للطائفة المنصورة، التي لم تنفصِلْ في تاريخ ارتباطها ـ منذ بزوغ فجر الرسالة ـ عن عصرها حتى الآن ولا لحظة واحدة، فإلى المبحث الخامس:

ooooo

المبحث الخامس

منازِلُ الفِرَقِ والمذاهبِ مِن جماعةِ المسلمينَ

لقد نظرْتُ في جميع النسب الدينية، فوجدتُها جميعاً تنتمي إلى مرحلة زمنيَّة متأخرة عن عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين - رضي الله عنهم - سواء أكانت سياسية تجلَّلت لَبوسَ الدين؛ مثل:

- الخوراج.
- الشيعة.
- القدرية.
- المرجئة.

أمْ عَقَدِيَّة؛ مثل:

- المعتزلة.
- الأشاعِرَة.
- الماتُرِيْدِيَّة.

أمْ مَسْلَكيَّة، وهي:

- الصوفيّة بفرقها وطوائفها.

أمْ متعصِّبة الفروعيَّة ؛ مثل متعصِّبة :

ــ الحنفية .

ــ المالكية .

ــ الشافعية .

ــ الحنبلية .

ــ الظاهرية .

فرأيتُ من خلال هٰذا أن مَن جاء بالشهادتين بحقِّهما في الصدر الأول؛ فهو مسلم وكفى، يعيش تحت مظلة الإسلام، وتحويهِ جماعة المسلمين، فليس بين مسلم ومسلم أي تميز عقَدِي، ولا فروعي، ولا سلوكي، ولا سياسي، بل الجميع أمةُ الإسلام: اعتقاد واحد، إلى قبلة واحدة، تنفذهم أحكام واحدة، وتحت مظلة ولاية عامة موحدة.

فالأرض بمثابة مملكة إسلامية واحدة، يشملهم اعتقاد واحد، ويقودُهم إمام واحد، له الشوكةُ والمَنَعة، تعقَدُ له البيعة، وتدين له الرقاب.

مضى الصدرُ الأول على هٰذا، فلا تبَدُّدَ ولا انقسام، ولا تفرُّقَ ولا انشقاقَ، وكانت كلما بَدَت فتنة؛ خَبَتْ وكُبِتَت، حتى قامت فتن، وبانت بوائن، وظهرت فرق ونِحَل، كل واحدة زادت في تصدُّع الأمة وانقسامها بعد وحدتها والتئامها، وفي انشقاق جماعة المسلمين وتباينهم بعد تراحمهم وتآلفهم.

وكانت العوامل في هٰذا هي تلكم التميُّزات العقدية، والسياسية، والسلوكية، وهٰذا غير خاف على الدارس والمتتبع لها.

أما الفروعية ؛ فعملت من جانب آخر - في حق جل المنتسبين إليها - على سبيل الحمية والعصبية لها ، وليس الخطأ خطأ الأئمة الأربعة - رحمهم الله - وحاشاهم ، فإن كل إمام نهى عن تقليدِه ، وأمر بالأخذ بالسنن ، وترك الرأي .

فالأئمة الأربعة ومَن قبلهم ومَن بعدَهُم من علماء الإسلام هم من أسباب حِفْظِ الله لدينه ، وما الطُّعنُ في علماء الأمة العاملين إلا ضلال مكشوفٌ ، ولكن أخطأ في حقِّهم مَن غلا واحترق في التعصُّب المذهبي الفروعي ، حتى وقعت فتنٌ ، وذابت مُهَجٌ ، وضاعت جهودٌ ، ونشبت حروبٌ كلاميةٌ ، بل أُدخل في دين الله ما ليس منه من التّكافر ، والتّقاطع ، والتّدابر ، والقول مثلاً بتحريم التزاوج بين الشافعي والحنفي ، وبطلان الإمامة في الصلاة في أحدهما ، بل نشبت حروب ومعارك دموية ؛ كما حصل بين الأحناف والشافعية بالمشرق في «أصبهان» و «الري» ؛ كما يُعْلم ذٰلك من مراجعتهما في حرفهما من «معجم البلدان» .

وهٰكذا . . . مما يسجل صفحات سوداء في حق معتملها ، والإسلام من هٰذا التعصُّب براء ، والسلف من هٰذا التمذهب الأحمق أبرياء .

فالنسبة الفروعية ؛ كما قال الحافظ ابن عبدالبر - رحمه الله - :

«لا يجوز لأحد أن يمتَحِنَ الناس بها ، ولا يوالي بهٰذه الأسماء ، ولا يعادي عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، من أي طائفة كانت»[1] .

---

(١) «الانتقاء» لابن عبدالبر (ص ٣٥) ، وعنه كتاب «أهل السنة والجماعة» (ص ١٦٨) .

المبحث السادس
تَسَاقُطُ الفِرَقِ أمامَ جَماعةِ المُسْلِمينَ
أَهْل السُّنَّة والجَماعَة

وهٰذه الفرق العقدية والسلوكية والسياسية تساقطت أمام جماعة المسلمين: أهل السنة والجماعة، الذين درجوا على منهاج النبوة، ولم ينفصلوا عنها ولا لحظة زمنية واحدة لا باسم ولا برسم، فليس لهم شخص ينتمون إليه سوى النبي ﷺ ومَن قَفَى أثره، وليس لهم رسم ومنهاج سوى منهاج النبوة: الكتاب والسنة، وليس لهم جماعة من المسلمين بل جماعتُهُمُ المسلمون، إذ الأصل لا يحتاج إلى سمة خاصة تميِّزُه، إنما الذي يحتاج إلى اسم معيَّن هو الخارج عن هٰذا الأصل من تلكم الجماعات التي انشقت من الأصل: جماعة المسلمين.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره أنه ﷺ قال:

«مَن دَعا بدعْوَةِ الجاهِلِيَّةِ؛ فهو مِن جُثاءِ جهنَّمَ، وإنْ صَامَ وصَلَّى وزَعَمَ أنَّهُ مسلمٌ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها: المسلمين، عبادَ الله».

فهم بحق يمثِّلون الامتداد الطَّبَعي للإسلام في مجموعه وصفائه، وللمسلمين في اجتماعهم وائتلافهم، ولهٰذا لما جاء رجل إلى الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فقال:

يا أبا عبدالله! أسألك عن مسألة أجعلك حجة فيما بيني وبين الله عز وجل.

قال مالك: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، سَلْ».

قالَ: مَن أهل السنة؟

قال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يُعْرَفُونَ به؛ لا جهمي، ولا قدَرِيّ، ولا رافضِيّ».

رواه ابن عبد البر[1].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية[2] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«وكذلك التفريقُ بين الأمة، وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله؛ مثل أن يقال للرجل: أنت شكيلي أو قرقندي؟! فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمة لا شكيلي ولا قرقندي، والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي، ولا قرقندي، بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله.

وقد رُوِّينا عن معاوية بن أبي سفيان أنه سأل عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنت على ملة علي، أو ملة عثمان؟

فقال: «لست على ملة علي، ولا على ملة عثمان، بل أنا على ملَّة

---

(١) «الانتقاء» لابن عبدالبر (ص ٣٥)، وعنه كتاب «أهل السنة والجماعة» (ص ١٦٨).

(٢) «الوصية الكبرى» (ص ١١١)، و «الفتاوى» (٣ / ٤١٥).

رسول الله ﷺ».

وكـذلـك كان كل من السلف يقولون: كل هٰذه الأهواء في النار. ويقول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم؟ على أن هداني الله للإسلام، أو أن جنَّبني هٰذه الأهواء؟

والله تعالى قد سمانا في القرآن: المسلمين، المؤمنين، عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم ـ وسموها هم وآباؤهم ـ ما أنزل الله بها من سلطان.

فلا يجوز لأحد أن يمتحنَ الناس بها، ولا يوالي بهٰذه الأسماء، ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان.

وأولياء الله ـ الذين هم أولياؤه ـ هم الذين آمَنوا وكانوا يتَّقون، فقد أخبر سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتَّقون، وقد بيَّن المتقين في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولٰكِنَّ البرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامى والمَسَاكِيْنَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفونَ بعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا والصَّابرينَ فِي البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وحِيْنَ البَأْسِ أُولٰئِكَ الذينَ صَدَقُوا وأُولٰئكَ هُمُ المُتَّقونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والتقوى هي فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه» ا. هـ. مختصراً.

فليس لهم لقب منسوب إلا إلى: الإسلام، الإيمان، الإحسان، التقوى؛ قال الله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّين مِن حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْراهِيْمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هٰذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْداً وتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ . . .﴾ [الحج: ٧٨].

وما ذاك إلا لنقاوتهم من البدع والأهواء المضلَّة والمكفِّرة، فالمبتَدع الكافر ببدعته ليس من المسلمين، وليست بدعته من الإسلام؛ مثل: البابية، والبهائية. . . والمبتدع الضال ببدعتِه هو من المسلمين من وجه، لكن ليس من نقاوتهم من وجه آخر؛ لبدعته؛ لأن الإسلام من البدع بُرَاء.

وقد كانَ المسلمون الأوائلُ ـ وهم الصحابة رضي الله عنهم ـ قبل بزوغِ بذرة التفرُّق والانشقاق ليس لهم اسم يتميَّزون به؛ لأنهم كما ذُكر يمثِّلون الإسلام، والامتداد الطَّبَعِي له، لكن لما حصلت تلك الفرق الضالة التي يشملها لفظ: أهل الأهواء؛ لغلبة اتباع الهوى عليهم، ولفظ: أهل البدع؛ لاتباعهم ما هو خارج عن الدين، أجنبيٌّ عنه، و: أهل الشبهات؛ لأنهم يَلْبِسُون الحق بالباطل، فيشبهون به على العامة؛ لبناء خروجهم عن السنة على مرض الشبهة الفاسدة، وقُدْوَتُهُم في هٰذا العدوُّ الأول إبليس ـ لعنه الله ـ فإنه أوَّل مَن قاس قياساً فيما ذكر الله عنه:

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِيْنٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

لما حصلت تلك الفرق؛ منتسبة إلى الإسلام، منشقة عن العمود

الفقري للمسلمين؛ ظهرت ألقابهم الشرعية المميِّزة لجماعة المسلمين، لنفي الفرق والأهواء عنهم، سواء ما كان من الأسماء ثابتاً لهم بأصل الشرع:

- الجماعة.
- جماعة المسلمين.
- الفرقة الناجية.
- الطائفة المنصورة.

أو بواسطة التزامهم بالسنن أمام أهل البدع، ولهٰذا حصل الربط لهم بالصدر الأول، فقيل لهم:

- السلف.
- أهل الحديث.
- أهل الأثر.
- أهل السنة والجماعة.

وهٰذه الألقاب الشريفة تخالف أي لقب كان؛ لأي فرقة كانت؛ من وجوه:

الأول: أنهـا نِسَب لم تنفصـل ولا لحظةً عن الأمة الإسلامية منذ تكوُّنها على منهاج النبوَّة، فهي تحوي جميع المسلمين على طريقة الرعيل الأول، ومَن يقتدي بهم في تلقِّي العلم وطريقة فهمه، وبطبيعة الدعوة إليه، فلم يعد إذن محصوراً في دور تاريخي معين، بل يجب أن يُفْهَم على أن مدلـوله مستمر استمرار الحياة، وضرورة انحصار الفرقة الناجية في أهل

الحديث والسنة، وهم أصحاب هٰذا المنهج، وهي لا تزال باقية إلى يوم القيامة؛ أخذاً من قوله ﷺ:

«لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي منصورينَ على الحَقِّ، لا يضرُّهم مَن خالفهُم ولا مَن خَذَلَهم»[1].

الثاني: أنها تحوي كُلَّ الإسلامِ: الكتابَ والسنةَ، فهي لا تختصُّ برسمٍ يخالف الكتاب والسنة زيادةً أو نقصاً.

الثالث: أنها ألقابٌ منها ما هو ثابتٌ بالسنة الصحيحة، ومنها ما لم يبرز إلا في مواجهة مناهج أهل الأهواء والفرق الضالة؛ لرد بدعتهم، والتميز عنهم، وإبعاد الخلطة بهم، ولِمُنابَذَتِهم، فلما ظهرت البدعة؛ تميَّزوا بالسنة، ولما حُكِّم الرأي؛ تميَّزوا بالحديث والأثر، ولَمَا فشت البدع والأهواء في الخُلُوف؛ تميزوا بهدي السلف، وهٰكذا...

ومن الملاحظ أنه لو كانت الأمة في قالب الإسلام الصحيح خالية من البدع والأهواء ـ كما كان الصدر الأول ـ ومقدمة السلف الصالح؛ لغابت هٰذه الألقابُ المميزةُ؛ لعدم وجود المُنَاهِضِ لها.

الرابع: أن عقد الولاء والبراء والمُوالاة والمُعاداةِ لديهم هو على الإسلام لا غير، لا على رسم باسم معين، ولا على رسم محدد، إنما هو الكتاب والسنة فحسب.

---

(١) انظر كتاب «الصفات الإلٰهية» للشيخ محمد أمان (ص ٦٤ ـ ٦٥).
والحديث رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما؛ بألفاظ انظرها في كتاب «أهل السنة والجماعة» (ص ٣٦ ـ ٣٨).

الخـامس: أن هٰذه الألقاب لم تكن داعيةً لهم للتعصُّب لشخصٍ دون رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسـلام ابن تيمية[1] ـ رحمـه الله تعالى ـ لما سُئِل عن حديث الافتراق؛ قال:

«ولهٰـذا وصَفَ الفـرقـةَ النـاجية بأنهـا أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم.

وأما الفرق الباقية؛ فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفـرقة من هٰؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هٰذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع؛ كان من أهل السنة والجماعة.

وأما تعيين هٰذه الفرق؛ فقد صنف الناس فيهم مصنفاتٍ، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هٰذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم عموماً، وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً، فقال تعالى:

﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكوا باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وأَنْ تَقُولوا على اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقالَ تعالى:

---

(١) «الفتاوى» (٣ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

﴿يـا أيُّهـا الذينَ آمَنوا كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ . إنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقُولوا عَلى اللهِ ما لاَ تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

وقالَ تعالى:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ بكَ بهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأيضاً، فكثير من الناس يخبر عن هٰذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفتَه والمنتسبةَ إلى مَتْبوعه الموالِيةَ له هم أهل السنة والجماعة، ويجعل مَن خالَفَها أهل البدع.

وهٰذا ضلال مبينٌ؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعُهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إن هُو إلا وحيٌ يوحى، فهو الذي يجب تصديقُه في كل ما أخبر، وطاعتُه في كل ما أمر، وليست هٰذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترَكُ إلا رسول الله ﷺ، فمَن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ؛ من أحبه ووافقه؛ كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه؛ كان من أهل البدعة والفرقة ـ كما يوجد ذٰلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذٰلك ـ كان من أهل البدع والضلال والفرق.

وبهٰذا يتبيَّن أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصَّبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها، واتِّباعاً لها؛ تصديقاً، وعملاً،

وحباً، وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها، الذين يردُّون المقالات المجملةَ إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بُعِث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذٰلك؛ يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرُّق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقاً للكتاب والسنة؛ أثبتوه، وما كان منها مخالفاً للكتاب والسنة؛ أبطلوه...» ا. هـ.

السادس: أن هٰذه الألقاب لا تُفضي إلى بدعة ولا معصية ولا عصبية لشخص معين ولا لطائفة معينة، فإذا قيل: أهل السنة والجماعة؛ انتظم هٰذا اللقب هٰذه الخواص، وهٰذا لا يكون لأحد من أهل الفرق بأسمائهم ورسومهم التي انشقُّوا بها عن جماعة المسلمين.

والسنة هنا يُرادُ بها ما يقابل البدعة، إذ لما ذَرَّ **الافتتان** بالبدع؛ صار تمييز جماعة المسلمين بالالتزام بالسنن، فقيل لهم: أهل السنة؛ مقابل أهل البدعة، وقيل لهم: الجماعة؛ باعتبار أنهم الأصل، والمنشق بهوى وبدعة مفارق لهم، وقد سمى النبي ﷺ المسلمين بالجماعة؛ لاجتماعهم على الاتِّباع دون الابتداع، وعلى التآخي دون الافتراق، ولهٰذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

«إنما الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك».

أخرجه البيهقي في «المدخل»، وبنحوه لدى اللالكائي في «شرح السنة»[1].

ومن هنا ألف علماء الإسلام كتب الاعتقاد باسم كتب السنة؛ لأنها مربوطة بالاتباع ورفض الابتداع.

وإذا قيل: السلف، أو السلفيون، أو لجادَّتهم: السلفية؛ فهي هنا نسبة إلى السلف الصالح: جميع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، فمن تبعهم بإحسان؛ دون من مالت بهم الأهواء بعد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مِن الخُلُوف الذين انشقوا عن السلف الصالح باسم أو رسم، ومن هنا قيل لهم: الخَلَف، والنسبة: خَلَفِيّ، والثابتون على منهاج النبوة نسبوا إلى سلفهم الصالح في ذٰلك، فقيل لهم: السلف، والسلفيون، والنسبة إليهم: سلفيٌّ، ولفظ (السلف) هنا لا يعني القديم؛ كما أن لفظ (الخلف) لا يعني المتأخر، بل لفظ (الخلَف) يعني الطالح في أحد معنييه؛ إذا كان بفتح اللام، أما بإسكان اللام (خَلْف)؛ فهو للطالح لا غير، ولا تكون للصالح؛ كما في قوله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾... [مريم: ٥٩].

وعليه؛ فإن لفظ (السلفْ) هنا يعني: السلفَ الصالحَ، بدليل أن هٰذا اللفظ عند الإطلاق يعني كل سالك في الاقتداء بالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حتى ولو كان في عصرنا... وهٰكذا.

---

(١) انظر: «أهل السنة والجماعة» (ص ٤٣ ـ ٤٨)، و«تخريج المشكاة» (١ / ٦١) (رقم ١٧٣).

وعلى هٰذا كلمة أهل العلم، فهي نسبة ليس لها رسوم خارجة عن مقتضى الكتاب والسنة، وهي نسبة لم تنفصل لحظةً واحدةً عن الصدر الأول، بل هي منهم وإليهم، أما من خالفهم باسم أو رسم؛ فلا، وإن عاش بينهم، وعاصرهم، ولهٰذا تبرأ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من القدرية والمرجئة... ونحوهم[1].

«فهٰذا الاصطلاح اشتهر حين ظهر النزاع ودار حول أصول الدين بين الفرق الكلامية، وحاول الجميع الانتساب إلى السلف، وأعلن أن ما هو عليه هو ما كان عليه السلف الصالح، فإذْن لا بد أن تظهر ـ والحالة هٰذه ـ أسس وقواعد واضحة المعالم وثابتة للاتجاه السلفي، حتى لا يلتبس الأمر على كل من يريد الاقتداء بهم، وينسْج على منوالهم»[2].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ بحوث حافلة في تحقيق مذهب السلف، وطريق إثباته، وأن كل طائفة تنتصر لما لديها من الباطل تنسبه إلى السلف، ويتسترون بهم، ولهٰذا كان شعار المبتدعة: ترك انتحال مذهب السلف، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فعلم أن شعار أهل البدع هو ترك اتباع السلف، ولهٰذا قال الإمام أحمد في رسالة عبدوس بن مالك: أصول السنة عندنا التمسك بما كان

---

(١) «أهل السنة والجماعة» (ص ٥١ ـ ٥٢) فيه نقول مهمة.

وانظر عن هٰذه النسبة «نموذج من الأعمال الخيرية» لمنير الدمشقي (ص ٩ ـ ١٢).

وهي جارية في كتب التراجم والسير لدى المتقدمين بلفظ: «وكان سلفياً»، ولفظ: «وكان على عقيدة السلف»، فانظر «معجم الشيوخ» للذهبي (١ / ٣٤ و٢ / ٢٨٠، ٣٦٩).

(٢) كتاب «الصفات الإلٰهية» للشيخ محمد أمان (ص ٥٧ ـ ٥٨).

عليه أصحاب النبي ﷺ»[1].

وإذا قيل: أهل الحديث، ومثله: أهل الأثر؛ فلاختصاصهم بمزيد العناية من روايةٍ ودرايةٍ، وأنهم يقدِّمونه على الرأي.

وقد كان الأئمة الأربعة ـ رحمهم الله تعالى ـ من رؤوس أهل الحديث؛ لقول كل إمام منهم: «إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي».

ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ منزلة أئمة الهدى في الدين، ومنهم الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ وشهود جنازته؛ قال[2]:

«كل من استقرأ أحوال العالم؛ وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين، وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوِّي الإدراك ويصححه؛ قال تعالى:

﴿والذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً﴾ [محمد: ١٧].

وقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً . وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ولَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٧].

---

(١) «الفتاوى» (٤ / ١٤٤ - ١٦٤).

(٢) «الفتاوى» (٤ / ١١).

وهٰـذا يُعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم، فلا تجد مسألة خولفوا فيها؛ إلا وقد تبيَّن أن الحقِ معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجـوعهم إلى غيرهم، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى، وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم.

فأمـا شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض؛ فهٰذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، لا تجد في الأمة عُظِّم أحدٌ تعظيماً أعظم مما عُظِّموا به، ولا تجد غيرهم يعظَّمُ إلا بقدر ما وافقهم فيه، كما لا ينقص إلا بقدر ما خالفهم.

حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة يقرُّ بذٰلك؛ كما قال الإمام أحمد:

«آية ما بَيْنَنا وبينهم يوم الجنائِز».

فإن الحياة بسبب اشتراك الناس في المعاش يعظم الرجل طائفته، فأما وقت الموت؛ فلا بد من الاعتراف بالحق من عموم الخلق، ولهٰذا لم يُعرف في الإسلام مثل جنازته؛ مسح المتوكل موضع الصلاة عليه، فوجد ألف وست مئة ألف؛ سوى من صلى في الخانات والبيوت، وأسلم يومئذ من اليهود والنصارى عشرون ألفاً، وهو إنما نَبُلَ عند الأمة باتباع الحديث والسنة.

وكذٰلك الشافعي، وإسحاق، وغيرهما، إنما نبلوا في الإسلام باتباع

أهل الحديث والسنة، وكذلك البخاري وأمثاله، إنما نبلوا بذلك، وكذلك مالك والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة وغيرهم، إنما نبلوا في عموم الأمة، وقُبِل قولهم؛ لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تُكُلِّم فيمن تُكُلِّم فيه منهم إلا بسبب المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة، إما لعدم بلاغها إياه، أو لاعتقاده ضعف دلالتها، أو رجحان غيرها عليها» ا. هـ.

قال ابن القيم[1] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«كل أحد يعلم أن أهل الحديث أصدق الطوائف؛ كما قال ابن المبارك: وجدت الدين لأهل الحديث، والكلام للمعتزلة، والكذب للرافضة، والحِيَل لأهل الرأي، وسوء الرأي والتدبير لآل أبي فلان».

فأهل السنة والجماعة هم الذين يمثلون الخطَّ المستقيم الذي خطه النبي ﷺ؛ كما في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ المشهور.

قال الله تعالى:

﴿وأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيْماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فمن درج على الصراط المستقيم؛ كان هو جماعة المسلمين، وكان هو الذي يمثل الإسلام في صفائه ونوره، وعدم خلطه بما يشوبه، ومن كان

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (٢ / ٣٥٩)، «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص ٤٨٠).

وعنها في «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» (ص ١٠٣) للشيخ محمد إسماعيل السلفي، تعريب الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد.

دون ذلك؛ فِرَقٌ وخُطُوط متناثرة على جنبتي الصراط، وأحكامهم متباينة بقدر القرب والبعد من الخط المستقيم: الصراط المستقيم، وجماعة المسلمين.

وها هنا تبرز دلالة من الدلائل على نبوَّة نبيِّنا ورسولنا محمد ﷺ في إخباره عن تفرُّق هٰذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن الفرقة الناجية مَن قال ﷺ في وصفها:

«مَن كان على مثلِ ما أنا عليه وأصحابي».

وهم الفرقة الناجية التي قال فيها النبي ﷺ:

«لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

رواه البخاري، وله ألفاظ أخرى عند بقية الستة.

وعليه؛ فهم الثابتون على خط الدفاع الشرعي عن الإسلام: منهاج النبوة: الكتاب والسنة، والدعوة إليهما، وعقد الولاء والبراء عليهما.

والصدر الأول من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فمَن تبعهم قادةُ الدور العملي للإسلام نقياً، قال الله تعالى:

﴿وكـذٰلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ ويَكُوْنَ الرَّسولُ عليْكُمْ شَهِيْداً﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال القرطبي[1] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فكل عصر شهيد على ما بعده».

---

(١) «تفسيره» (٢ / ١٥٦).



المبحث السابع

جماعةُ المسلمينَ أمامَ المُواجَهَاتِ

وجماعة المسلمين: أهل السنة والجماعة، الدارجون على منهاج النبوة: الكتاب والسنة، وعقد الولاء والبراء عليهما، يواجههم في خطهم الجهادي والدفاعي عن الإسلام جبهتان، تمثلان الوعاء الشامل لكل الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى الضعف والفرقة، وهما:

الأولى: الخطر الخارجي، وهو الكافر المتمحِّض، الذي لم يعرف نورَ الإسلام بعد؛ بما يكيده للإسلام والمسلمين من غزو يحطّم في مقوماتهم العَقَدية، والسلوكية، والسياسية، والحكمية...

لكنه لا يصل في الغالب إلا عن طريق الفرق المنضوية تحت لواء الإسلام، وعن طريق صنائعهم المنهزمين من أهله، فيثيرون بهم الفتنة عن قرب، ويَزِيْلُونَ عنِ المسلمين بنصرتهم للكافرين.

وقد استقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في مواضع من «منهاج السنة النبوية» أن هٰذه الخاصية تميَّزت بها الرَّافضة بفرقها الغالية المعروفة على مدى التاريخ، وتَوالي النُّذُر.

الثانية: مواجهة التصدُّع الداخلي في الأمة؛ بفشُوِّ فرقٍ ونِحَلٍ طاف طائفها في أفئدة شباب الأمة، وهي تحمل في مطاويها خَللاً وعِللاً، تَشْرُدُ بسالكها عن جماعة المسلمين، فإن مقاومة ما فيها من بدع وأهواء استنزفت من المسلمين الجهد الجاهد، فالتهمت الوقت آناء الليل وأطراف النهار، إذ التصدُّع الداخلي تحت لباس الدين يمثل انكساراً في رأس المال: المسلمين، وقد كان للسالكين على ضوء الكتاب والسنة - الطائفة المنصورة - الحظ الوافر، والمقام العظيم في جبر كسر المسلمين، بردهم إلى الكتاب والسنة، وذلك بتحطيم ما قامت عليه تلك الفرق المفرِّقة من مآخذ باطلة في ميزان الشرع، يجمعها اتباع الهوى، والحكم بالمتشابه، وحجية الكشف والإلهام والرؤيا، وفتيا القلب (حدثني قلبي عن ربي!)، والطعن في خبر الآحاد، ودعوى مخالفة النص للمعقول، وتحكيم العوائد، وزخرفة الباطل، والاستدلال المقلوب بالاستحسان، وبالمصالح المرسلة على الأهواء، وبتر النقول والنصوص، والدس في كلام أهل السنة، بل في السنة، والتحريف فيها: التأويل، وفاسد القياس، ومعارضة النص بالرأي، وبدعة التعصب وتقديس الأشياخ، وتعظيم خطر مخالفتهم بما يخرج عن حدود الشرع، وتحكيم ظواهر النصوص من غير التفات إلى مقاصدها، والاحتجاج بالسواد الأعظم، وتقييد المطلق بالتشهِّي، وعكسه، والتهويل بدعوى الإجماع، والاحتجاج بمقامات الشيوخ، والتغالي فيهم، واستغلال الغلط في تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، والتحريف في دلالة النص: الوضع في الاستعمال، والاعتماد على الضعاف والواهيات في المرويات، وصرف فهم النص عن سَنَنِ لغة

العرب، ودعوى تناقض السنة مع السنة، ودعوى تناقضها مع القرآن، ودعوى أن للنص ظاهراً وباطناً . . .

وهكذا من مآخذ أهل البدع والأهواء في الاستدلال، وممَّن ضرب بسهم وافر في بيان الكثير منها الإمام الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الاعتصام»، وفندتُها جميعَها في «أصول الإسلام لدرء البدع عن الأحكام»؛ على حد قوله تعالى:

﴿ولِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ المُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

أي: لاجتنابها.

ومن هنا تبرز دلالة من دلائل النبوة في إخبار النبي ﷺ بتفرق هذه الأمة، وأن النجاة لواحدة منها، وهي التي خطَّ لها ﷺ الخط المستقيم وهو ينكت بعود في الأرض، وعلى جنبيه خطوط، على كل خط منها شيطان يدعو إليه.

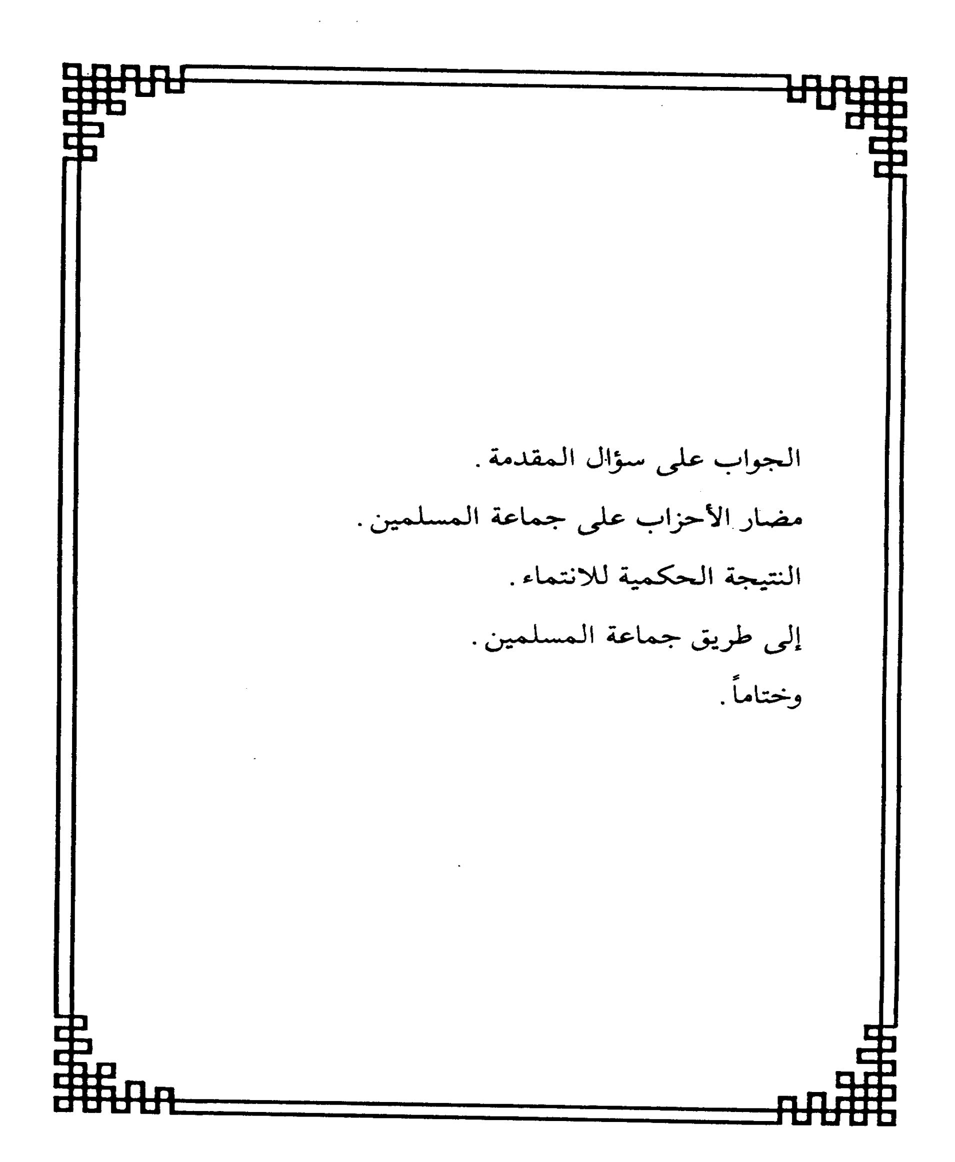
فهذا الخط المستقيم هو الإسلام، والإسلام واحد لا يتعدد، وما عداه فهو من السبل، وإن كان بعضاً من الإسلام، لكنه لا يمثل كل الإسلام، وسالكها يمثل جماعة من المسلمين بقدر ما لديه من أنوار الإسلام قلة وكثرة وقرباً وبعداً من الصراط المستقيم.

ومن هنا صار من لم يتلقَّب باسم ولم يَحْجُر نفسه في قالَبِ جماعةٍ تَقْصُرُ عن أصول الإسلام وأُفُقِه الواسع هم جماعة المسلمين، وهم الذين ثبتوا في خط الدفاع الشرعي عن الكتاب والسنة، وعقد الموالاة والمعاداة عليهما.

وبعد هٰذه الأبحاث السبعة التمهيدية بين يدي الجواب، فإليك بيان الجواب عن السؤال السابق في صدر هٰذه الرسالة[1]:

ooooo

(1) (ص ٦ - ٩).



الجواب على سؤال المقدمة.

مضار الأحزاب على جماعة المسلمين.

النتيجة الحكمية للانتماء.

إلى طريق جماعة المسلمين.

وختاماً.

الجواب على سؤال المقدمة

وعليه؛ فالجواب عن هٰذا السؤال يتضح على ما يلي:

علم بالضرورة من دين الإسلام أن الأصل أنه:

لا دين إلا بجماعة.

ولا جماعة إلا بإمامة.

ولا إمامة إلا بسمع وطاعة.

وهٰذه الثلاثة متلازمة، آخِذٌ بعضها ببعض، فلا قوام لسوق الإسلام، وقيام جماعة المسلمين، وصلاحهم في معاشهم ومعادهم تحت ولاية إسلامية ذات شوكة ومنعة؛ إلا بهٰذا.

ويروى عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال:

«لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة».

رواه الدارمي[1].

---

(١) «سنن الدارمي» (١ / ٧٩)، وفي سنده صفوان بن رستم؛ قال الذهبي في «الميزان» (٢ / ٣١٦): «مجهول».

فالمسلمون جميعهم في صورة جسم واحد، أعضاؤه المتلاصقة هم أفراده المتآخون.

وقوام هٰذا الجسم بالإسلام: الكتاب والسنة، وهٰذه (سياسته الدينية).

والضمانة له برعاية حرماته وتماسك جماعته هي بنصب إمام شرعي له، وهي (سياسة ذٰلك الجسم الإدارية).

فالإسلام هو الأصل في تكون الجسم النامي للأمة، والإمامة وسيلة لحراسة ذٰلك الجسم في أمر الدين والدنيا.

واعلم كذٰلك أن الإسلام لا يقبل التشطير ولا التجزئة، فالنبي ﷺ وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ ومن قفا أثرهم إلى يومنا هٰذا يدعون إلى الإسلام لا إلى بعضه.

وقد نعى الله على مَن آمَن ببعضٍ وكفر ببعضٍ، فقال سبحانه:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

فكذٰلك النكير على مَن دعا إلى بعض الإسلام دون بعض؛ بزيادة أو نقص:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيْثٍ بعدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنونَ﴾.[الجاثية: ٦].

وأن جماعة المسلمين على منهاج النبوة لا تقبل التشطير ولا التجزئة، فالنبي ﷺ من حين بعثته نبياً رسولاً إلى وفاته ﷺ، ثم صحابته ـ رضي الله عنهم ـ، فمن تبعهم بإحسان، كانت دعوتهم لتكوين جماعة المسلمين حاملة راية التوحيد، لا لجماعة من المسلمين، وقد أوصى ﷺ بذٰلك.

وأنهم هم المسلمون، وهم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية، وهم السلف الصالح، وهم مَن كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، وأمر بلزومهم، ونهى عن مفارقتهم والشذوذ عنهم، كما نهى عن تفرقهم، ونصوصُ الكتاب والسنة في هٰذا متكاثرةٌ.

وأن منهاج جماعة المسلمين هو الإسلام، على منهاج النبوة: الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ الله على المُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عليهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فهنا حل الإسلام جميع الامتيازات؛ إلا ما كان منها على الكتاب والسنة، فطرح عن محل العناية والنصرة والولاء والبراء أي امتياز سواهما، واعتبار ذٰلك بنتيجتهما التي هي التقوى؛ كما قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فحظُّ جماعة المسلمين من التقوى على قدر نصيبهم من العمل بالوحيين الشريفين، وهما ميزان الولاء والبراء، فبقدر الحظ منهما يكون الولاء، وبقدر الفوت يكون البراء، وهٰذا لا يمكن له أن ينضبط إلا في حق مَن كان على الصراط المستقيم، والخط القويم، من كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه: جماعة المسلمين.

هٰذا هو المفهوم الشرعي لجماعة المسلمين، متآخون على منهاج النبوة: الكتاب والسنة، ينتظمهم إمام ذو شَوْكَةٍ ومَنَعَةٍ.

وهٰـذه هي الـروابط العـامـة بين المسلمين لوحـدتهم وتمـاسـك جماعتهم، وبقدر التفريط يحصل الاختلاف والاضطراب، فإذا انخزل فرد من أفراد المسلمين أو انخزلت فرقة عنهم؛ فهٰذا انشقاق على المسلمين، وتفريق لجماعتهم، وهو في طبيعة حاله انخزال عن كل الإسلام على منهاج النبوة.

وهـو عكس ما أوصى به النبي ﷺ من اعتزال الفرق كلها، ولزوم جماعة المسلمين، فهٰذا اعتزل جماعة المسلمين، والتزم بالفرقة المفارقة لهم باسم أو رسم، وَبُعْدُهُ أَو قُرْبُه من الإسلام وجماعة المسلمين بقدر ما لدى هٰذا الفريق المنعزل عن جماعتهم من أمر كلي أو جزئيات متكاثرة.

واختلال القوام: أحكام الإسلام، بمثابة فصد شريان منه، فيصيب الجسم من الذبول بقدر ما يستفرغ منه.

وإذا اختـل السمع والطاعة في الطاعة والمعروف؛ وقعت الشناعة والتشفي من الجسم وقوامه، وحينئذ تختل الجماعة؛ لضعف السلطة الحامية.

فالـولاء والبـراء، والـدعـوة والجهـاد، والـوعظ والإرشاد، والنصح والتذكير، والالتزام في القول والعمل؛ ينعقد كل هٰذا وما يتبعه على رسم منهاج النبوة لا غير.

فلا يجوز مثلاً عقد الموالاة على اسم دون اسم الإسلام.

ولا الموالاة على رسم دون رسم الإسلام؛ بزيادة عليه، أو نقص منه.

ولا موالاة بعض المسلمين دون بعض، تحت رسم اسم معين لجماعة دون جماعة آخرين، لكنه الالتزام بالجماعة، جماعة المسلمين، على منهاج النبوة.

وعليه؛ فإذا انعقدت فرقة أو جماعة أو حزب إسلامي تحت شعار معين مستحدث يُعْقَدُ عليه الولاء والبراء.

وإذا انعقدت ملتزمة بعضاً مما أمر الله به دون بعض.

وإذا انعقدت لا توالي إلا مَن انتظم في سلكها دون من سواهم.

وإذا انعقدت في بلد أهلُه على منهاج النبوة التي درج عليها السلف الصالح، أهل السنة والجماعة؛ مخالفةً في أمر كلي أو جزئي باسم أو رسم.

فكل هٰذه عُقودٌ محرَّمةٌ لا تجوز؛ لما فيها مِن البَغْيِ بغيرِ الحقِّ، وهَضْمٍ لجوانِبَ في الإسلام، وميل عن طريق النبي ﷺ في الدعوة، وشذوذ عن الأصل: جماعة المسلمين، وإيذان بتفرُّقهم، وتشتيت لشملهم، وكسر لوحدتهم.

وبناء على ما تقدم، وعلى ما يدل عليه استقراء الشرع: إن السابلة والطريق التي على المسلم التزامها في ظل الأصول والقواعد العَقَدِيَّة الضابطة، والموثقة بنصوص الشرع القاطعة في الدلالة، هي على ما يلي، مع ذكر ضوابطها الشرعية، وقواعدها العَقَدِية، ومراحل الدعوة إليها، وما إلى ذٰلك؛ طرداً للقاعدة الكلية الجامعة من رد الجزئيات إلى الكليات، وبيان هٰذه الكليات على الآتي:

● **أولاً :**

الأصل الالتزام بالكتاب والسنة، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم بالسمع والطاعة على غير معصية، وقيام المتأهل بالدعوة إلى الله تعالى على منهاج النبوة، لا يخالفها باسم ولا برسم، ولا حقيقة ولا شكل.

وعلى المتأهل أيضاً أن لا يرى الدعوة في بلده نهاية المطاف منه لأمته، بل يجب حسب وسعه أن يتجاوز الحدود الجغرافية لبلده بالدعوة إلى الله، وإقامة الإسلام في نفوس العباد، فوق أي أرض، وتحت أي سماء، ولكن هٰذا مشروط ـ وآيم الله ـ بأن لا يُخلي موقعه، فليتنبه لهٰذا الشرط، والله أعلم.

وعليه :

١ ـ إذا كان المسلم في ولاية إسلامية فيها هٰذه الثلاثة متلازمة: إسلام، وجماعة المسلمين على منهاج الإسلام الصحيح، وولاية إسلامية؛ فإنه ـ ما لم يظهر كفر بواح ـ لا يجوز له تفريق جمع المسلمين بإيجاد حزب إسلامي، أو جماعة إسلامية، على هٰذه الأرض التي حالها كذلك.

﴿فَمَاذا بَعْدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢]؟!

فهو في حقيقة حاله عنوان تفرق واختلاف: شقٌّ لعصا الطاعة، وتفريق للجماعة، وشرود عن جماعتهم.

وفي حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «مَن أراد بحبوحة الجنة؛ فليلزم الجماعة».

رواه الترمذي وأحمد[1].

فعليه أن يلزم جماعة المسلمين، ويسير معهم على منهاج الكتاب والسنة، ويدعو إلى ذلك، ويصبر، ويصابر، وعلى أهل العلم والإيمان من جماعة المسلمين: أهل السنة والجماعة، أن تجتمع رابطتهم - رابطة العلماء - على هذا، قال الله تعالى:

﴿ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأُولٰئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأمة هنا هي أمة العلماء، الذين يُصْلح الله بهم عمومَ الأمة، وهم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم الذين تطمئن إليهم النفوس، ويُشِعُّون أنوار التنزيل، ويدعون إلى الله.

وتكون هٰذه الرابطة ردءاً عن نشوء أحزاب وجماعات على جنبتي الصراط المستقيم، لا على الصراط المستقيم، ولتتم تربية شباب الأمة، وتحصينهم بالعلم الشرعي النافع من أصوله ومعاقله، وحتى لا يُسَلَّ الشباب من بين أيديهم: تحتضنهم الفرق، وعوامل التغريب، وتعصف بهم الأهواء والضلالات، وتتخطفهم شياطين الإنس والجن، وأخيراً تصاب الدعوة بالاحتضار، وتبلغ ثنيَّةَ الوداع على حين غفلة من علماء الأمة، وسعي من أولٰئك الذين يقذفون بجراثيمهم العَقَدِية والسلوكية ومناهجهم الفكرية في أفئدة شباب الأمة، على مرأى ومسمع من أهل السنة؟!

وهٰذا الواجب قد بيَّنه الله، ودعا إليه حملة العلم الشرعي الموروث،

---

(١) انظر: «جامع الترمذي»، و«المسند».

فقال سبحانه:

﴿ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأُولٰئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال النبي ﷺ:

«يحمِلُ هٰذا العلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُه...» الحديث.

رواه جماعة؛ منهم البَزَّارُ والبيهقيُّ، وصحّحَه الإمامُ أحمد وابنُ عبدالبر، وحسَّنه العلائيُّ، ورجَّح العُقيلي المسندَ منه على المرسل[1].

ولهٰذا ترجم البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من «صحيحه» بقوله:

«باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحق يقاتلون»، وهم أهل العلم».

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه له[2]:

---

(١) «المسند» (٢ / ١٥٩ و٢٠٢).

وانظر: «جمع الجوامع» للسيوطي (ص ٩٩٥)، «فتح الباري» (٦ / ٤٩٨)، «إرشاد الساري» (١ / ٤) وفيه ذكر تحسين العلائي للحديث.

وللزبيدي رسالة باسم «الروض المؤتلف...»؛ كما في «فهرس الفهارس» (١ / ٥٣٩).

وانظر: «مفتاح دار السعادة» (ص ١٦٣) لابن القَيِّم، و«العواصم والقواصم» لابن الوزير (١ / ٣٠٨ ـ ٣١٢) طبع دار البشير عام ١٤٠٥هـ، و«الحِطَّة في ذكر الصحاح السِّتَّة» (٧٠ ـ ٧٢) لصدِّيق حسن خان، طبع دار عمار.

(٢) «فتح الباري» (١٣ / ٢٥٠).

«قوله: «وهم أهل العلم» هو من كلام المصنِّف، وأخرج الترمذي حديث الباب، ثم قال: سمعتُ محمد بن إسماعيل ـ هو البخاري ـ يقول: سمعتُ علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث. وذكر في كتاب «خلق أفعال العباد» عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿وكذٰلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً﴾: هم الطائفة المذكورة في حديث: لا تزال طائفة من أمَّتي، ثم ساقه...» ا. هـ.

وتأمَّل سرّاً عظيماً في أن ترقِّي الأمة أو انحطاطها، وانضباطها أو فشلها؛ يؤول إلى ركن ركين، وأصل أصيل؛ قوة أو ضعفاً، اجتماعاً أو تفرقاً، إلى رابطة العلماء، ولما يقوم بهم من احتساب يصغر دونه الاكتساب، واجعل نظرك إلى مدى قيام رابطة العلماء مقياساً تقيس به الدول، وتزن به الأمم فيمن غبر وحضر.

والعالم العدل هو المحتسب الذي لا يحترف بالإسلام، ولا تثنيه الأطماع.

وهٰذا الواجب هو الذي من أجله سميت هٰذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، ومن أجله صاروا ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، وصاروا ﴿شُهَدَاءَ على النَّاسِ﴾.

هٰذا هو المتعيِّنُ على العالم المتأهِّل: تفاعل مع الدعوة، وقيام بها، وأن تكون دائرةَ همِّه وتفكيره، فلا يهمُّه إلا همُّها، ولا يفكِّر إلا بسبيلها؛ طلباً لبناء الأمة في غربتها الثانية؛ بناءً وتأسيساً على منهاج النبوة، على يد علماء الأمة العاملين؛ من التربية، والتوجيه، والتعليم، والإرشاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ شعوراً بهٰذا الواجب، وأداء له، وإقامة للحجة على الخلق، وحفظاً لرأس المال: المسلمين، وطلباً للربح.

أما أن يتولى أهل العلم عن مهمتهم في موقع الحراسة لدين الله، ويتأخرون عن مواجهات عصرهم؛ فهٰذا من التولي يوم الزحف، وهو إذعان وتسليم لأغلى ثرواتهم المادية: نسلهم، وقِوام أمتهم ودينهم، إلى من يُوَجِّههم بالوجهة العَقَدِية والسلوكية على غير منهاج جماعة المسلمين: أهل السنة والجماعة، والتي لا يرضونها، بل لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنون، وهل بعد هٰذا من معصية وتفريط؟ ثم هل بعده من خسارة وإخسار؟

وهٰذا الواجب على العالم المتأهل كل مسلم يؤمن بأنه لا يخلو منه زمان في ظل الطائفة المنصورة والفرقة الناجية:

«فلقد قيَّض الله لتحقيق أهداف بعثة النبي ﷺ العامة أمة كاملة، لكي تستمر الدعوة إلى الإسلام إلى يوم القيامة، في كل أمة، وفي كل زمان ومكان، وفي مختلف اللغات، ولا تعود حاجة إلى بعثة الأنبياء إلى مختلف الأمم على حدة، وإلى نزول الوحي بأنواع اللغات وصنوف اللهجات.

وبما أن الله تعالى قد ختم به ﷺ سلسلة الأنبياء والمرسلين، وناط مسؤولية الدعوة والتبليغ وإتمام الحجة على الخلق بأمته ﷺ، فكفل صيانة الدين عن طريقين:

الأول: أنه حفظ القرآن الكريم من كل تحريف أو تبديل، ونقص أو زيادة، حتى لا يحتاج العالم البشري في الاهتداء بهدي الله والاطِّلاع على الأوامر والنواهي الإلٰهية إلى نبي جديد.

والثاني: أن الله سبحانه وتعالى جعل طائفة من أمة محمد ﷺ لا تزال

قائمة على الحق؛ كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ لكي يكون منهج هٰذه الطائفة في الحياة وعلمها وعملها أسوة دائمة، ونبراساً وضَّاء لكل من يَنْشُدُ الحق، ويستضيء بنور الإسلام.

فهٰذه الطائفة العاضَّة على الحق ستوجد - ولو في عدد ضئيل - إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها، تحيي أسوة النبي ﷺ والصحابة - رضي الله عنهم - مهما اشتدَّت الفتن، وقامت الثورات، وحينما تكون الضلالة قد أخذت من هٰذه الأمة كل مأخذ، وتسري في أعضائها كما يسري السم الخبيث في أعضاء وعروق مَن لدغه الكلب المجنون؛ سيعصم الله حينذاك عضواً من هٰذه الأمة، لا يؤثر فيه سم الضلالة تأثيراً ما، بل ستبقى هٰذه الجماعة المؤمنة الحقَّة[1] تؤدِّي دورها، وتجدِّد من الدين ما أفسده الناس، وتدعو العالم إلى الصلاح والفلاح، حتى في الوقت الذي تنقلب فيه الموازين كليّاً، فيصبح المعروف منكراً، وبالعكس، وتتبدَّل الطبائع، فيغدو لديها الخير شراً، والشرُّ خيراً، ويتعزَّز المبتدعة، والدَّاعون إلى المعروف أجانب لا ناصر لهم ولا معين.

وإنما أراد الله من إبقاء هٰذه الجماعة المؤمنة على الحق إلى اليوم الآخر أن يصون أسوة محمد ﷺ - كصيانته لعلم الوحي في صورة الكتاب الكريم - وصحابته - رضوان الله عليهم -؛ لكي لا ينطفىء أبداً، ذٰلك الذي

---

(١) نعني بها تلك الطائفة التي يذكرها الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق...» إلى آخر الحديث الذي ورد بألفاظ مختلفة في معظم دواوين الأحاديث الصحيحة، وقد أجمع المحدِّثون على صحته.

انتهى من كلام الإصلاحي.

لا بد منه لاهتداء الناس، وإتمام الحجة على الخلق»[1] ا. هـ.

٢ - وإن كان المسلم في بلد فيه جماعةٌ مسلمون، لكن ليست ولايته إسلامية، فليعتزل الفرق المخالفة للإسلام، والمختلفة عليه، وليكن اعتقاده وعمله ودعوته على منهاج النبوة، وسيرة السلف الصالح في هٰذه الأمة في: الاعتقاد، والحكم، والسلوك، والأحكام، يؤمن بذٰلك، ويدعو إليه على منهاج النبوة، وعلى مَن أفاء الله عليه من المسلمين إمدادهم بالعلم والمال.

٣ - وأما من ابتُلِي بالإقامة العارضة في دار من ديار الكفر؛ فليعلم أن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية، فعلى المسلم أن ينضم إلى أخيه. . . وهٰكذا؛ ليلتئم تناثرهم، ويعيشوا على حال يحمون بها دينهم، ويطمعون في الدعوة إلى الله، وعلى مَن أفاء الله عليه من المسلمين بمال أو جاه أن يمدَّهم بما يشد عزائمهم، مع تعاهدهم بالعلماء العاملين، وتحذيرهم من دعوات الضالين.

عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال:

كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشرٍّ، فجاء الله بهٰذا الخيرِ، فهل بعد هٰذا الخير من شر؟

قالَ: «نعم».

قلتُ: وهل بعد هٰذا الشرِّ من خيرٍ؟

---

(١) «منهج الدعوة إلى الله» (ص ٢٢ - ٢٣) لأمين أحسن إصلاحي.

قال: «نعم، وفيه دخن».

قلتُ: وما دخنه؟

قال: «قوم يهدُون بغير هديي، تعرِفُ منهم وتنكِر».

قلت: فهل بعد ذٰلك الخير من شر؟

قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم؛ من أجابهم إليها؛ قذفوه فيها».

قلت: يا رسول الله! صِفْهُم لنا.

قال: «هم من جلدتِنا، ويتكلّمون بألسنَتِنا».

فقلتُ: فما تأمرُني إن أدركني ذٰلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامَهُم».

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمامٌ؟

قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذٰلك»[1].

وفي لفظ لمسلم عن أبي سلاَّم قال:

قال حذيفة بن اليمان: قلتُ: يا رسولَ الله! إنا كنا بِشَرٍّ، فجاء الله بخيرٍ، فنحن فيه، فهل من وراء هٰذا الخير شرٌّ؟

قال: «نعم».

---

(١) البخاري ومسلم.

قلتُ: كيف؟

قال: «يكـون بعدي أئمَّة لا يهتدون بهداي، ولا يستَنُّونَ بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجال، قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس».

قال: قلتُ: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟

قال: «تسمعُ وتطيعُ للأمير، وإن ضَرَبَ ظهرَك، وأَخَذَ مالَك، فاسمَعْ وأطِعْ»[1].

وفي لفظ لأحمد وأبي داود:

كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وأسأله عن الشر، وعرفتُ أن الخير لن يسبِقَني، قلتُ: يا رسول الله! أبعد هٰذا الخيرِ شرٌّ؟

قال: «يا حذيفةُ! تعلَّم كتابَ الله، واتَّبِعْ ما فيه»؛ ثلاث مرات.

قال: قلتُ: يا رسول الله! أبعد هٰذا الشرِّ خيرٌ؟

قال: «هدنة على دَخَنٍ، وجماعة على أقْذاء».

قال: قلتُ: يا رسول الله! الهدنةُ على دَخَنٍ ما هي؟

قال: «لا ترجِعُ قلوبُ أقوامٍ على الذي كانتْ عليهِ».

قال: قلتُ: يا رسول الله! أبعد هٰذا الخير شر؟

قال: «فتنـة عمياء صماء، عليها دعاة على أبواب النار، وأنت أن تموت يا حذيفة وأنت عاضٌّ على جذل خير لك من أن تتَّبِعَ أحداً منهم»[2].

---

(١) مسلم.

(٢) أحمد، وأبو داود.

وفي لفظ عن خالد اليَشْكُري ـ وذكر القصة ـ قال:

وحدَّث القومَ (أي: حذيفةُ) فقال: إن الناس كانوا يسألون رسول الله عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ، فأنكر ذٰلك القوم عليه، فقال لهم: إني سأخبركم بما أنكرتم من ذٰلك: جاء الإسلام حين جاء، فجاء أمر ليس كأمر الجاهلية، وكنتُ قد أعطيتُ في القرآن فهماً، فكان رجال يجيئون فيسألون عن الخير، فكنت أسأله عن الشرِّ، فقلتُ: يا رسول الله! أيكون بعد هٰذا الخير شرٌّ كما كان قبله شرٌّ؟

فقال: «نعم».

قال: قلتُ: فما العِصْمَةُ يا رسول الله؟

قال: «السيف».

قال: قلتُ: وهل بعد السيف بقيَّة؟

قال: «نعم، إمارة على أقذاء، وهُدنة على دَخَن».

قال: قلتُ: ثم ماذا؟

قال: «ثم تنشأ دعاة الضلالة، فإن كان لله يومئذٍ في الأرض خليفة جلد ظهرك، وأخذ مالك؛ فالزمه، وإلا فمت وأنت عاض على جذل شجرة».

قال: قلتُ: ثم ماذا؟

قال: «يخرج الدجَّال بعد ذٰلك...» الحديث[1].

---

(1) أحمد، وأبو داود.

وهٰذه الروايات بواسطة كتاب «أهل السنة والجماعة» (ص ٤٠ ـ ٤٢).

● **ثانياً :**

ومنهاج الداعي في هٰذه الأمور الاستقرائية هو على منهاج النبوة لا غير، ذٰلك أن الدعوة إلى الله تعالى هي دعوة فطرية، سهلة، ميسورة، واضحة المعالم في الكتاب والسنة، لا تحتاج إلى أمر خارج عن منهجها: منهاج النبوة، في صورة أو حقيقة، في كل زمان ومكان.

والدعوة إلى الله على هٰذا المنهاج، والعمل الداعي لتعميق مقتضاه في النفوس، هو وظيفة كل متأهل في الإسلام، فإنه يسمو عن ضيق التحزُّب؛ لأنه عمل على منهاج النبوة بكل ما تعنيه من شمول واحتواء، وهٰذا واجب على كل متأهل بأصل الشرع، لا ينتظر فتح باب الانتماء الحزبي، فالانتماء لهٰذا الواجب الدعوي هو في أصله من مسلّمات الدين المعلومة منه بالضرورة، لكنه ينتظر النزول في الساحة لصناعة الرجال، وإخراج أهل الإسلام من غربتهم الثانية.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:

«بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغُرباء»[1].

رواه مسلم، وهٰذا الحديث من أفراده عن البخاري.

---

(١) عن طرق هٰذا الحديث وتخريجه، وشرح غريبه انظر: «كشف اللثام عن طرق حديث غربة الإسلام» للشيخ عبدالله بن يوسف الجديع، طبع مكتبة الرشد بالرياض عام ١٤٠٩هـ. وللحافظ الآجري رسالة باسم «صفة الغرباء من المؤمنين» طبعت عام ١٤٠٧هـ نشر دار الخلفاء بالكويت، تحقيق الشيخ بدر البدر. وللحافظ ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ رسالة مشهورة متداولة باسم «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» طبعت مراراً. ورسالة «طوبى للغرباء» للشيخ سليم الهلالي.

ولا سبيل إلى إزالة هٰذه الغربة إلا بمثل ما أزيلت به الغربة الأولى، ولذا يقول الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ:

«لن يَصْلُح آخرُ هٰذه الأمة إلا بما صَلَحَ به أولها».

بترسُّم منهاج النبوة.

وعلى هٰذا سار الصدر الأول، فمَن قَفَى أثرهم؛ فهم جماعة المسلمين، حَمَلَة العقيدة الإسلامية الصحيحة، السالمة من أمراض الشهوات والشبهات؛ دون من انشق عنهم وفارق جماعتهم بحقيقة أو منهج، باسم أو رسم، لا يرتضيه الشرع.

وعليه؛ لا يعرض من وجه يخالف منهاج النبوة؛ زيادةً أو نقصاً، فإن أي اختلال في طريق الدعوة باسم أو رسم، يمثل عائقاً بين الإسلام والقلوب؛ لأنه طريق ناقص، والناقص لا يُنشد منه الكمال.

● ثالثاً: في مراحل الدعوة على منهاج النبوة:

١ ـ الجهر بالدعوة إلى الله تعالى، وذٰلك لتحقيق كلمة التوحيد، وتعميق وغرس مقتضاها في النفوس، فهي قاعدة الانطلاق، وأساس التنظيم، وهي البداية؛ كما في قول النبي ﷺ في افتتاح دعوته:

«قولوا: لا إلٰهَ إلا الله؛ تُفْلِحوا».

وهي النهاية؛ كما في قول النبي ﷺ:

«لَقِّنوا موتاكُم لا إلٰه إلا الله...» الحديث.

وفي هٰذا إشعار بأن حياة المسلم مبنيَّة على التوحيد.

وهي أول مأمور به في القرآن الكريم؛ كما في فواتح سورة البقرة:

﴿يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

وناقضها ـ وهو الشرك بالله ـ أول منهيٍّ عنه؛ كما في الآية بعدها:

﴿فَلا تَجْعَلوا للهِ أنْداداً وأنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وأول فعل يأتي في القرآن هو في التوحيد:

﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ. . .﴾ [الفاتحة: ٥].

والتوحيد هو فاتحة القرآن الكريم، وهو خاتمته؛ إعلاناً بأن ما بين الدفتين كله لتحقيق التوحيد، فهو فاتحة القرآن؛ كما في أول سورة الفاتحة:

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣].

فلفظ الجلالة إشارة إلى توحيد الألوهية، ولفظ (رب العالمين) إشارة إلى توحيد الربوبية، ولفظ (الرحمٰن الرحيم) إشارة إلى توحيد الأسماء والصفات.

وهٰذه هي أنواع التوحيد التي قامت دلالة الاستقراء لنصوص الشرع عليها.

وهو في خاتمة القرآن العظيم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلٰهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣].

فأشار سبحانه إلى توحيده في ربوبيته، وفي ألوهيته، وهما مستلزمان

لتوحيده سبحانه في أسمائه وصفاته.

والتوحيد هو الغاية من خلق الله لخلقه، قال تعالى:

﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلا لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

أي: يوحدوني.

والتوحيد هو الغاية من بعثة الله لأنبيائه ورسله؛ كما قال تعالى:

﴿ولَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقالَ سبحانه - بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولاً -:

﴿أُولئكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فإحياء مدلول (لا إلهَ إلا الله)، وتعميق حقِّها، والتحذير من نواقضها: هو البداية، وهو النهاية، وهو الغاية من خلق الجن والإنس، وهو الغاية من بعثة الأنبياء والرسل، وهو مفتتح القرآن، وهو خاتمته، وهو أول أمر فيه، ونفي نواقضها أول نهي فيه:

(فمِن أجلها أُسِّسَتِ الملةُ، ونُصِبت القبلةُ، وجُرِّدت سيوفِ الجهاد، وخُلِقت الجنة والنار).

والاعتقاد الحق السالم من أمراض الشبهات والشهوات سبب لصفاء الذهن، وتقوية الإدراك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] - رحمه الله تعالى -:

---

(١) «الفتاوى» (٤ / ١٠)، وتقدم مطولاً (ص ٣٦ - ٣٧).

«فكلُّ من استقرأ أحوال العالم؛ وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث، تجدهم كذلك متمتعين، وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوِّي الإدراك ويصححه؛ قال تعالى:

﴿والذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً﴾ [محمد: ١٧].

وقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيْتاً . وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً . ولَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطَاً مُسْتَقِيماً﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٧]» ا. هـ.

والاعتقادُ الحق بتجريد التوحيد لله سبحانه سببٌ للعلم النافع، وفقدُه صدٌّ عنه، قال الله تعالى:

﴿وأُوتِيْنَا العِلْمَ مِن قَبْلِها وكُنَّا مُسْلِمينَ . وصَدَّهَا ما كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ [النمل: ٤١ - ٤٢].

فإسلامها كان سبباً لحصول العلم، وعبادتها ما هو من دون الله صدها عن العلم النافع والرشد[1]، فتأمل هذا من أسرار التنزيل.

والاعتقاد الحق بتجريد التوحيد لله تعالى عصمة من الخسران، وفقده سقوط في التَّباب، قال الله تعالى:

---

(١) «أصول النظام الاجتماعي» للطاهر بن عاشور (ص ٩ و١٠).

﴿فَمَا أَغْنَتْ عنهُمْ آلِهَتُهُمْ التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وما زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

فجعل صرفَهُمُ العبادة عن الله تعالى سبباً في تبابهم، أي: خسرانهم.

فليكن دائماً افتتاح الدعوة إلى الله، وقاعدة المنطلق في الدعوة إلى دينه وشرعه، من هٰذه الكلمة العظيمة: (لا إلٰهَ إلا الله)، وتعميق مقتضاها على أنوار الكتاب والسنة.

ومنهج أنبياء الله ورسله هٰذا هو الذي سار عليه الصدر الأول من هٰذه الأمة من الصحابة - رضي الله عنهم - فمن بعدهم، فنشروا الإسلام بصفائه ونوره وهدايته؛ خالياً من أمراض الشبهات والشهوات، غير متميزين عن خط الإسلام وصراطه المستقيم باسم ولا رسم، ينطلقون من دار الدعوة: المدينة النبوية جماعاتٍ وآحاداً، متفرقين في الآفاق، لكنهم يلتقون على مقتضى (لا إلٰه إلا الله).

فاتَّحَدَت الدعوة ونتائجها مع اختلاف الدعاة وتعدد الآفاق، ويرحل المدعوُّ من قطر إلى آخر، فيجد ما التزمه من الإسلام في المغرب هو لدى أخيه المسلم في المشرق... وهٰكذا.

ولهٰذا تجد علماء السنة على اختلاف آفاقهم تتَّفق كلمتهم في نصْرة السنة، وكشف البدعة؛ لوحدة الالتقاء على الكتاب والسنة، كما يعلم ذٰلك من أدنى نظرة في مصنَّفات السنة، ومن أرأسها كتاب اللاَّلَكَائِيِّ.

ولا تَنْسَ أن يمرَّ نظرُك على ما ذكره أمير المؤمنين في الحديث الإمام

البخاري - رحمه الله تعالى - إذ قال[1]:

«كتبت عن ألف نفرٍ من العلماء وزيادة، ولم أكتبْ إلا عمَّن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمَّن قال: الإيمان قول».

أما لو كانت الدعوة على رسوم الأحزاب، وقوالب الجماعات، التي لا تلتقي بكل ما لديها مع منهاج النبوة في الدعوة؛ لوجد الراحل الانقسام، وتعدد المناهج، فبأي المنهجين يأخذ؟ آلذي دُعِيَ إليه أم الذي رحل إليه؟ واعتبر هذا في حال عصرنا؛ تجد ما أقول لك قضية مسلَّمة.

إنه منهج أنبياء الله ورسله، كلهم يفتتح الدعوة بقوله:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهٰكذا المجدِّدون لدعوة خاتم الرسل ﷺ على هٰذا الصراط المستقيم الثابت على تطاول القرون، وإن تجدَّدت الوقائع، وتغيَّرت الأحوال، واختلفتِ الأقطار؛ كلهم أول ما يبدؤون برفع راية التوحيد، وتحقيق كلمة الإخلاص، والنذارة عن الشرك، وطرح مظاهره، والتطهير من خفاياه، ولهٰذا تأتي أحكام دين الله وشرعه، تتتابع اعتقاداً وقولاً وعملاً.

وتأمَّل سرّاً أنَّ الدعوة متى كانت كذٰلك؛ كان أهلوها أعمق في دين الله، وأبعد عن البدع والأهواء المضلَّة.

أما الفرق والأحزاب (الجماعات) التي تنشأ في منهجها الدعوي على غير هٰذا الأساس؛ فما هي إلا رد فعل للحالة المتردِّية: السياسية، أو الاجتماعية، أو العلمية التي عايشها المؤسس:

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٥ / ٨٨٩).

فإذا عايش سقوط ما يسمى بالخلافة الإسلامية ؛ أقام دعوته مؤسسة على المطالبة بالحكم (توحيد الحاكمية) .

وإذا عايش المؤسس تفكك (الأقليات المسلمة) أقام دعوته على أساس الربط الأخوي بالخروج إلى القرى والفلوات .

وإذا عايش تلكم الموجة الملعونة (جحد وجود الله سبحانه) ؛ أقام دعوته على أساس تحقيق (توحيد الربوبية) بإثبات الرب الخالق الرازق سبحانه .

فاعتبر أي جماعة أو فرقة تقوم بما أحاط بنشأتها ؛ لتعرف الأصل الذي بُنِيَتْ عليه دعوتها ، فما كان مبنياً على غير منهاج النبوة وراية التوحيد ؛ فإنه منهج دعويٌّ على جنبتي الصراط ، وأهله من جماعة المسلمين ، وليسوا جماعة المسلمين ، وقربهم من الطائفة المنصورة والفرقة الناجية بقدر ما لديهم من أنوار النبوة ومشكاتها .

فهل إلى مردٍّ إلى منهاج النبوة في الدعوة من سبيلٍ ؟ !

ويتجلّى بعد هٰذا أن افتتاح الدعوة لم يكن بحزب صوفي ، ولا كلامي عقلاني ، ولا سياسي ، لم يكن بواسطة شيء من ذٰلك ، لكنه منهاج النبوة في الدعوة بتكوين الجماعة المسلمة : المسلم الموحد ، أولاً ، إنها سنة التدرج من أصل الأصول إلى ما بعده ، الانطلاق في الدعوة من راية التوحيد (لا إلٰه إلا الله) بحقها ومقتضاها إلى أحكام الشرع كافة .

وإذا صح من المسلم الاعتقاد ، وصفا من درن الشرك ، والشبهات ؛ تناثر ما علق في البدن والقلب عن أقذار الشهوات ، أما البدء بإزالة الشهوات

ـ والقلوب مأسورة بأمراض الشبهات ـ فهٰذا منهج غير فطري، ويأباه الشرع، ويعاكس منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله:

﴿فأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنِيْفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطرَ النَّاسَ عليهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وأما تصعيدُ النظر إلى القيادة قبل بناء القاعدة المسلمة؛ فهو انطلاقٌ من فراغ، يشابه مسلك الخوارج من وجه، ونتيجته عمليات حصد لشباب الأمة، وإفناء للقدرات في زنازن السجون، وغياهب القبور، وليس لهم من أثر إلا كالخط على الماء.

«والحاصل أن الرابطة الحقيقة التي تجمع المفترق، وتؤلِّف المختلف هي رابطة (لا إله إلا الله)[1]، ألا ترى أن هٰذه الرابطة ـ التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً ـ عطفت قلوب حملة العرش ومَن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض، مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى:

﴿الَّذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنُونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرونَ للذينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً فاغْفِرْ للذينَ تَابُوا واتَّبَعوا سَبِيْلَكَ وقِهِمْ عَذابَ الجَحِيمِ . رَبَّنا وأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَهُمْ ومَن صَلَحَ مِن آبائِهِمْ وأَزْواجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ . وقِهِمُ السَّيِّئاتِ ومَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وذٰلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

---

(١) أي: بمعناها الصحيح الذي أُرسلت به جميع الرسل.

فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومَن حوله، وبين بني آدم في الأرض، حتى دعوا الله لهم هٰذا الدعاء العظيم؛ إنما هي الإيمان بالله جل وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: ﴿ويؤمِنُونَ بهِ﴾، فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدم في استِغْفار الملائكة لهم: ﴿ويَسْتَغْفِرونَ للذينَ آمَنوا﴾ فوصفهم أيضاً بالإيمان، فدل ذٰلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان، وهو أعظم رابطة.

وبالجملة؛ فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة (لا إلٰه إلا الله)، فلا يجوز ألبتة النداء برابطة غيرها»[1].

وجماعة المسلمين لا يمكن أن تتم لها هٰذه الرابطة إلا على يد العالم المتأهل، الذي يقيم فيها مقتضيات (لا إلٰه إلا الله).

«إن هٰذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله... لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع... ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هٰذه العبودية الخالصة... تنقِّي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ، وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـ معه أو دونه ـ، وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ.

عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ تكون هٰذه الجماعة مسلمة، ويكون هٰذا

---

(١) «أضواء البيان» (٣ / ٤٤٧ ـ ٤٤٨) باختصار.

المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك. . . فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله ـ على النحو الذي تقدم ـ؛ فإنهم لا يكونون مسلمين. . . وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هٰذا الأساس؛ فلا يكون مجتمعهم مسلماً. . . ذٰلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم ـ هي شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ لم تقم بشطريها.

وإذن؛ فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هٰذا النظام. . . ينبغي أن يتَّجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله ـ في أية صورة من صورها التي أسلفنا ـ وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة. . . وهٰذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله؛ اعتقاداً وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هٰذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته، التي تتمثل فيها العبودية لله وحده. . . أو بتعبير آخر: تتمثل فيها شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

هٰكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول. . . وهٰكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهٰكذا يقوم كل مجتمع مسلم.

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله ـ معه أو من دونه ـ إلى العبودية لله وحده؛ بلا شريك، ثم من تقرير هٰذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هٰذه

العبودية . . . وعندئذ يتمّ ميلاد جديد لمجتمع جديد، مشتق من المجتمع الجاهلي القديم، ومواجه له بعقيدة جديدة، ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه . . . شهادة أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله . . .

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد، وقد لا ينضم؛ كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشنَّ المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها، سواء على طلائع هٰذا المجتمع في مرحلة نشوئه ـ وهو أفراد أو مجتمعات ـ أو على هٰذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً ـ وهو ما حدث في تاريخ الدعوة منذ نوح عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام بغير استثناء ـ.

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم: قوة الاعتقاد والتصور، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الجماعي، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي، ويتغلب عليه، أو على الأقل يصمد له»[1] ا. هـ.

وهٰذه المرحلة العظيمة من مراحل الدعوة إلى الله تعالى يقوم بها أهل الإسلام في مجالين:

الأول: العمل على تحقيق التوحيد؛ بصرف جميع أنواع العبادة لله

---

(١) «معالم في الطريق» (ص ٨٦ ـ ٨٨).

سبحانه على مقتضى الشهادتين، وتصحيح عقيدة التوحيد لدى المسلمين؛ بإزالة ما علق به من درن الشرك بالله تعالى، بصرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره سبحانه؛ كالدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والخوف، والرجاء.

الثاني: دعوة الكفار إلى الإسلام، وإلا فرفع علم الجهاد، على ما هو معلوم في دين الإسلام.

ومعلوم أن المسلمين هم رأس مال كل مسلم، فتصفية الاعتقاد فيهم من شوائب الوثنية هو من باب حفظ رأس المال، وأما دعوة الكافر إلى الإسلام فهي من باب طلب الربح، ولا شك أن حفظ رأس المال مقدَّم على طلب الربح، والله أعلم[1].

وهٰذا من شمولية الإسلام، أي: عموم النذارة به، قال الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّها المُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ**﴾ [المدَّثر: ١ - ٢].

وقال تَعالى:

﴿**فَقُلْ آذَنْتُكُم عَلى سَوَاءٍ**﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

وقال النبي ﷺ:

«بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ»[2].

---

(١) انظر نحو هٰذه الرقيقة للحافظ ابن هبيرة كما في «فتح الباري» (١٢ / ٣٠١ - طبعة السلفية)، وعنه ذكرتها في «تغريب الألقاب العلمية» (ص ٣٧ - الطبعة الثانية).

(٢) جزء من حديث جابر، أخرجه مسلم وغيره.

وهٰذا ظاهر من عموم الرسالة :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وقالَ سبحانه :

﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وعلى هٰذا الأساس قامت الدعوة أول ما قامت في رحاب المسجد الحرام، وعليها بنى النبي ﷺ هجرته إلى المدينة ـ حرسها الله تعالى ـ :

«هاجَرَ ليُجاهد الشركَ بالتوحيد، ويعالجَ الشَّتَاتَ بالوحدة، والتوحيدُ هو روحُ الإسلامِ وجوهرهُ، وسبيلُ الإسلامِ وغايتُه، وليس التوحيدُ الذي تَضَمَّنَ سِرَّ الدين كله مقصوراً على ما تَعارَفَه الناس من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الشَّريك والندِّ، وإنما يَشْمَلُ كُلَّ ما يكفل للأمة وللإنسانية الألفة والوحدة والتعاون: من توحيد الله، وتوحيد العقيدة، وتوحيد الكلمة، وتوحيد الغاية، وتوحيد الدنيا والدين، وفي سبيل التوحيد في شتَّى مظاهره كابد الرسولُ ما كابد من عَنَتِ الشركِ، وسَفَهِ الجهالة، وإفراط العصبيَّة.

دعا إلى توحيد الله، وقد كانت الآلهةُ تتعَدَّدُ بتعدُّد القوى والقبائل والأمم، وكان الإنسانُ أهْوَنَ على نفسه من الحيوان والشجر والحجر، فعبد ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي في اللهِ وقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام : ٨٠] .

﴿قُلْ إنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوْحَى إليَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ثم دعا الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى توحيد الإنسانية

بمحو العصبية القبلية، وقتل النَّعْرَةِ الجنسية، وتغيير القياس لدرجات الناس، فجعل التقديم والتكريم بالتقوى، وبذلك زالت الفروق الاجتماعية بين الباهلي والقرشي، وبين الفقير والغنيّ، وبين الأسود والأحمر:

«إنَّ ربَّكُم واحدٌ، وإنَّ أباكُم واحدٌ، كلُّكُم لآدم، وآدمُ من تُرابٍ، إنَّ أكرمَكُم عند الله أتقاكُم، لا فَضْلَ لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتَّقوى».

ثم واءَمَ بين الدين والدنيا، وقد كانت الشرائع الأخرى تفصل بينهما كل الفصل، فجعل اليهود الكهانة في اللاَّويِّين، ثم انصرف سائرهم إلى الصَّفْقِ والاجتراح، ودعا المسيحيون إلى الرَّهبانية والنُّسك وتَرْكِ ما لقيصر لقيصر، ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح والجسد، فلا تعمل إلا بوحيه، ولا تسير إلا بهديه، فكان خليفة الرسول هو ملك الناس، وكان إمام المصلين هو قائد الجند.

وأنت إذا نظرتَ في حياة الرسول بالبصيرة، وبحثتَ في أصول الإسلام بالرَّوِيَّةِ؛ وجَدْتَ مبدأ التوحيد والاتِّحاد مَرْمى كل عمل، وأساس كل قاعدة، وبفضل التوحيد والوحدة جعل الله العرب القلال الضعاف أئمةً للناس، وورثةً لكسرى وقيصر، فلما انشقَّتِ العصا، وتمزَّق المسلمون، ونسوا الله، وفصلوا بين دينه ودُنياهم؛ ضعُفوا، ولانوا، واستكانوا، وأصبحوا بين الأمم القويَّةِ قطعاناً تُسام وسلعاً تُساوم.

لقد آن للمسلمين أن يرجِعوا إلى ما دعا إليه نبيُّهم، ويتَّبِعوا ما صلح عليه أولهم، فيوحد زعماؤهم الجهود، وتحدِّد أحزابهم الخطط، وتستعدُّ شعوبهم للقيام بنصيبها الأكبر من بناء حضارة روحية تقوم على العدل،

وتستقيم بالمساواة، وتستضيء بالدين، ويرتفع في جَنباتِها المترامية ذكر الله :

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج : ٤٠ - ٤١]» انتهى مختصراً[١].

٢ - ومن مراحل الدعوة على منهاج النبوة : محو جاهلية الحكم بغير ما أنزل الله بالدعوة إلى تحكيم شريعة الله : في الولاية العظمى، والقضاء، ومرافق الحياة كافة، إذ تحكيم الشريعة في ذلك عبادة، والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، فتحكيم القوانين الوضعية في القضاء مثلاً شرك بالله في حكمه، ألا ترى قول الله تعالى :

﴿إِنِ الحُكْمُ إِلا للهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ [يوسف : ٤٠].

٣ - محو ظلمات الجاهلية بأنوار النبوَّة في تحقيق توحيد الاتِّباع : شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك من معاقد الإسلام ومعاقل الإيمان : في أركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستة، وفي السلوك، والاجتماع، والأخلاق. . .

كل هذا مقتضى هدي الكتاب والسنة ؛ لقلع ما رسخ في عقول الأمة، وتطهير ما غشي حياتها من البدع، والأهواء، ومظاهر الوثنية والانحراف عن الصراط المستقيم، حتى تؤول إليه أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم.

---

(١) «مجلة الرسالة» (٨ / ٣٤٨، ص٣٦٣، عام ١٩٤٠م).

٤ ـ محو ظلمة الجهل بنور العلم الشرعي الموروث عن النبي ﷺ، ولهٰذا قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب العلم من «صحيحه»:

«باب: العلم قبل القول والعمل».

إذ اكتساب العلم داعية لتحريك وتحقيق أربعة مقاصد:

أ ـ إصلاح الفكر والاعتقاد.

ب ـ إصلاح العمل.

ت ـ إيجاد الوازع النفسي المُوْرِثِ لأنَفَةِ العالم المسلم من مزالق الردى في الفكر والتصور والعمل.

ث ـ الإنذار به.

قال الله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

أي: لينشأ وازع الحذر في النفس من المخالفة في صلاح القول والعمل، ولن يُؤتي هٰذا الجهادُ العلميُّ ثماره إلا بتزبية معادن الأجيال عليه، وشحنهم به؛ لينشأ جيل فقيه النفس في الدعوة والأحكام، وهٰذا أنفس صفات علماء الشريعة.

٥ ـ العناية بمفتاح تبليغ الدعوة الإسلامية: اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، ونشرها، إذ هي الذريعة إلى مدارك الشريعة، فلا وصول كاملاً إلى الإسلام؛ إلا بمعرفة لغته التي بها نزل القرآن، ودُوِّنَتِ السنة، وسُطِّرت دواوين الإسلام كافة، ولهٰذا كان الهجوم على اللغة العربية هجمة على

الدين، وعجمة اللسان تُعْقِبُ عُجْمَةً في القلب والفكر، ووأدها وأد لحملتها وقوامها.

٦ ـ شغل أمة الإسلام لوظيفتها المفروضة عليها التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله: الأمر بالمعروف، وأعظمه التوحيد، والنهي عن المنكر: وأرذله الشرك بالله تعالى، مؤسسة القيام بها على العلم، وضبط النفس بالموضوعية، محفوفة بالرفق، والصبر، واليقين، وما نصاب الاحتساب إلا سياج تُصان به الأمة من الانحراف، والشذوذ، والتعثر، والوهن، والفساد، وهو مؤشر حيوي، ورقيب زكي على معالم الهدى ومعاقل الإسلام.

وبالجملة؛ فهٰذه الوظيفة العظيمة هي كما قال ابن العربي[1] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«أصل الدين وخلافة النبوة».

وكما قال القرطبي[2] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فائدة الرسالة، وخلافة النبوة».

وبها يكون في هٰذه الأمة شَبَهٌ بالأنبياء، من جهة أنها مهدية بنفسها، هادية لغيرها، تعبد الحق، وتنصح الخلق.

ولذا؛ فإن مَن لا يشعر بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لا يحتسب عضواً صالحاً في الأمة.

---

(١) «أحكام القرآن» (١ / ٢٩٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤ / ٤٧).

ولذا؛ فإن أهملتهما طائفة من الأمة؛ وجبت محاربتها حتى تدين بهما، ولعظيم شأنها انظر كيف جعلهما الله من وظائف الدولة المسلمة عند قيامها، وتمكُّنها؛ كما في قوله تعالى:

﴿ الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ولِلّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وإذا كانت أعراف الدولة عند تولِّي القيادة تصدر ما يسمى لدى المغاربة بلفظ (الظهير) ولدى غيرهم (خطاب العرش)؛ فإن هٰذه الآية الكريمة هي بحق منشور الدولة الإسلامية.

وإذا كان الحال كذلك؛ فإن ما ينشأ في الدولة من ولايات ووزارات وإدارات يجب أن يكون تأسيسها واشتغالها في دائرة هٰذا المقصد الأعظم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله أعلم[1].

٧ ـ الثباتُ في مواقع الحراسة لدين الله؛ لأن تخلِّي الداعية عن موقعه من مواطن الإثم، بل هٰذا من التولِّي يوم الزحف، فاحذروا.

٨ ـ التصدِّي لدعوى فصل الدين عن الدولة، أو الدين عن السياسة؛ بإبطالها، والبيان للناس جهاراً بأن السياسة عصب الدين، ولا يمكن له القيام والانتشار وحفظ بيضته إلا بقوة تدين به، وأن هٰذه الدعوة الآثمة ـ فصل الدين عن السياسة ـ هي في حقيقتها عزل للدين عن الحياة، ووأد للناس وهم أحياء.

---

(١) انظر كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لجلال الدين العمري، فهو مهم في بابه.

وما حقيقة وصل الدين بالسياسة إلا الدعوة إلى الله، وإقامة الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل على مد الإسلام، وجزر الكفر والكافرين، وقهر الفسقة عن المحارم والتهارش؛ حماية لحرمات المسلمين، وأوطانهم، واستقرار أمنهم، ليكونوا يداً على مَن سواهم، عوناً على مَن ناوأهم، وبالجملة: ليعيش المسلمون في ظل حماية إسلامية لا في ظل أعدائهم من المشركين والملحدين.

ولن يقوم هذا الدين، ولن تتحقق غاياته في الحكم والقضاء ومجالات الحياة كافة؛ إلا بمن يحمل راية التوحيد، يصدِّع الكفر والكافرين، ويقوِّم عِوَجَ الفسقة والمائلين عن الصراط المستقيم، وهٰذا لا يتأدى إلا بسلطان ذي شوكة يدين بالإسلام، وعالم يجهر بالبيان، فإذا اجتمع اللسان والسنان من تحتهما جيل الجهاد في دائرة الإسلام؛ كانت الضمانة العظمى لنصرته، ونشر الدعوة إليه، وبناء حياة الأمة على هدي الكتاب والسنة.

وهٰذا التلاحم بين الدين والدولة هو حقيقة الوفاء بين الذين آمنوا بربهم سبحانه وتعالى للتجارة معه ببيع النفس والمال والولد في سبيله:

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِن عَذابٍ أَليمٍ . تُؤْمِنُونَ باللهِ ورَسُولِهِ. . .﴾ الآيات [الصف: ١٠ ـ ١٢].

٩ ـ تَلَمُّس مواطن الضعف في الأمة، وذٰلك برصد عمليات إعلال الأمة وإضعافها لتخلُّفها وانحسارها عن الحياة الجادة، والمبادرة إلى إسعافها وانتشالها من أي منهج مُعتل يريد التسرب إليها، ومن أهمها:

أ ـ البعد عن حقائق الكتاب والسنة.

ب ـ وقوعهم أسرى الفهم الخاطىء لنصوصهما.

ت ـ دبيب داء الفرقة والاختلاف.

ث ـ الهجمات الشرسة على الاعتقاد والأخلاق، والعلم والآداب والعلماء في قوالبها المتنوعة؛ من المذاهب والتموُّجات العقدية والمادية والفكرية والسلوكية ونحوها من الأهواء المضلِّة والبدع المكفِّرة؛ لبيان زيفها، وكشف باطلها، طرداً لها عن أوطان المسلمين وأفئدتهم.

ج ـ الانحسار عن العمل لبناء مجد الأمة وذاتيتها وسد حاجاتها؛ لتعيش في عزة وكرامة لا عالة على غيرها.

ح ـ محاصرة الاستبداد... والتضييق عليه حتى ينسلَّ من واقع الأمة.

خ ـ التيَقُّظ من دبيب الاستعمار الفكري على يد صنائعه الذين أداروا ظهورهم للإسلام، فبذلوا في تغريب الأمة المسلمة جهد الشياطين كل بقدر ما عب من سم أسياده ونهل، وداء التشبه أصل في دروس دين الله وشرعه.

● **رابعاً: واسطة البلاغ للدعوة على منهاج النبوة:**

لست أعني بالواسطة أولئك الأخيار الذين يملكون قسطاً من الحماس والتوثُّب مع الخلو من الفقه الشرعي الموروث عن النبي ﷺ، فهؤلاء أراهم أحفاد الدعوة، وسيكونون خلفاء العلماء في الدعوة بعد شحنهم بالعلم النافع، وتربيتهم على العمل الصالح.

ولا أعني البكّائين الذين يبكون على السابقين، ونسمع نحيبهم على السالفين، يجتنبون السيئة في أنفسهم، ويعايشونها في أمتهم، ولا إنكار لها، فهم في انحسار عن مواجهة واقعهم ومعايشة آلام أمتهم، بل هم في انزواء عن حركة العالم المَوَّارَة.

ولا أولٰئك الذين يلوكون عمليات التخدير: العزلةَ العزلةَ، الساعة في اقتراب، فسد الزمان، حتى يخرج المهدي عليه السلام... ونحوها من كلمات حق توضع في غير موضعها، ويحتج بها في غير مواردها، ويعيش المسلم بها مَيْتاً قبل أن يموت.

ولا الذين يشتطون في الحكم بالتكفير، ويركبون موجة اليأس من الإصلاح والاستصلاح.

ولا الذين يقولون بالجبر، ويتبنَّوْن الإرجاء مسلك الهلكة في الإسلام، وتحطيم القوى الفاعلة في الشريعة، وهو مذهب رديء، وما علمت له مثلاً ـ بإسقاط الأمة على أم رأسها ـ.

ولا الذين أخذوا من الإسلام الزُّهديات، وكفُّوا عن النزال في الساحات، فهٰؤلاء أخذوا من الإسلام شطراً لا يعيش من ورائه الإسلام، وعطَّلوه عن مراد الشرع منه في اعتدال النزال، والأعمال، وسيرها بانتظام.

فهٰؤلاء الأصناف ومَن في حكمهم هم بحاجة إلى استصلاح ودعوة إلى منهاج النبوة في التحمل والأداء، والدعوة والبلاغ.

أما الصور الركيكة والأشباح المخيفة: عباد الدرهم والجاه، الراكضون وراء السراب؛ فهٰؤلاء من علامات اقتراب الساعة، إي ورب

العباد، فنعوذ بالله من شرورهم، وإذا رأيتهم في فجٍّ؛ فاسلك غير سبيلهم، وتقرَّب إلى الله في الحطِّ عليهم، حتى لا يُغْتَرَّ بهم، فيصبح مَن حولهم من المسلمين أمواتاً متحرِّكين في أيدي آخرين؟! فما هم إلا أخلاف السوء، أتباع الشهوات؛ قال الله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ٥٩].

وانظر نُبوءة النبي ﷺ عنهم في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الآتي بعد، وفي أولاء شبه من الغابرين في بني إسرائيل، المذكورين في قول الله تعالى:

﴿وَتَرَى كَثِيْراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ في الإِثْمِ والعُدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ . لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢ ـ ٦٣].

قال ابن جرير[1] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هٰذه الآية، ولا أخوف عليهم منها».

ونسأل الله الهداية لنا ولجميع المسلمين، آمين.

وعليه؛ فأقول: إن رأس التنظيم في الدعوة أن تكون على لسان الداعية المتأهِّل، الصالح المصلح، الذي يأتمر بالصالحات ويأمر بها، وينتهي عن المنكرات وينهى عنها، فلا يسمح له صلاحه أن يعاين في أمته

(١) «تفسير ابن جرير» (٦ / ١٧٠).

سنةً تموت، وبدعةً تُحيى، وحقاً يُخذَل، وباطلاً يُعلَن، وهو أخرس اللسان، بارد الجَنان.

إنه العالم الربَّاني، المتربي بالعلم والإيمان، الذي يعايش الإسلام واقعاً ودعوة، يدعو إلى الله بعلمه وهديه وحسن سمته على رسم الشرع قبل أن يدعو بلسانه، مُضَحِّياً بماله ونفسه ـ وإن دعوة تبذل فيها المهج لا تموت ـ؛ لأن مهمته ليست تربية جنود، وإنما تربية خلفاء له في الدعوة، فيقيم الله به سوق الإيمان، وينسخ به مكايد الشيطان[1].

وأن يتَّسم بالثبات في موقعه من الحراسة لدين الله، وبالتثبُّت والتأنِّي في جميع مراحل الدعوة، وإن طال الدرب، حتى تزول هٰذه الغربة كما زالت الأولى، وحتى يتسع نطاق العاملين بالإسلام على وجهه الصحيح، مكونين بقوة الوضع جبهة مترامية الأطراف في وجه الذين لا يؤمنون، وحينئذ يميلون على الذين كفروا ميلة واحدة بإذن الله تعالى.

وعليه؛ فإن عزل الإسلام عن إطار حياة المسلمين ـ بله الداعية ـ تناقضٌ بين القول والعمل، وهٰذا سبب للمقت، وسبب لحجب الإسلام عن أن يُرى عملياً، ولهٰذا قال بعض العلماء:

«الإسلام محجوب بأعمال المسلمين».

أي: للمخالفة في أعمال المسلمين للإسلام.

« ومن هنالك؛ فكل فرد أو جماعة، إذا كانت تعمل على خلاف ما

---

(١) في «الإبانة الكبرى» لابن بطة الحنبلي (١ / ٢٠٣):
«وكان يُقال: العلماء تنسخ مكايد الشيطان».

تدعو إليه، فكأنها توفِّر الدلائل على بطلان دعوتها، وتردُّها بنفسها، وبما أن الدليل العملي أقوى من الدليل القولي، فيكون موقف تلك الجماعة العمليُّ المضادُّ لدعوتها دليلاً آكد وأقوى، يُغني في ردها وإبطالها عن كل دليل آخر.

فإذا كان المسلمون يشهدون بدين الله؛ فلا بد أن يكونوا يؤمنون به، ويدعون إليه، وأن يطبِّقوه على الحياة الفرديَّة والاجتماعية تطبيقاً عملياً شاملاً، وأمَّا بدون ذلك؛ فلا تتحقق الشهادة التي كُلِّفوا هم بأدائها.

ومن المنطق المعقول أن الشهادة باللسان بكون شيء حقاً، ثم إقصاؤه عن مجالات الحياة العملية، عبثٌ من ناحية إتمام الحجة على الخلق أيضاً، وإن كانت لذلك نتيجة؛ فهي أن حجة الله على المسلمين أنفسهم تتمُّ بذلك، فيؤاخذون عليه يوم القيامة.

أما المَواطن التي يجوز فيها التغاضي عن العمل عن بعض أوامر الدين؛ فقد بيَّنها القرآن الكريم، مع الدلالة على الحل الناجع لها، إذا صدر من أحد عمل ينكره الإسلام، وذلك بضغط الشهوات أو العواطف الخبيثة، فيمكنه أن يعالجه بالتوبة.

ومثلاً: إذا أُكْرِه أحد على المنكر، والانحراف عن قوانين الإسلام، فما الذي يمنعه من أن يسعى للتخلص من ذلك الموقف الحرج؟

فإن تقاعس هذا عن التوبة، وذلك عن السعي للخلاص، وأصبحا يخضعان لما يصنعان، ويدينان بحالة الاضطرار الاستثنائية التي اضطرا إليها، ويؤمنان بها كعقيدة ومبدأ؛ فالمنصب ـ منصب الشهادة على الناس ـ

الذي قُلِّدا إياه، نحَّاهما عنه ـ عفواً ـ اقتناعُهما بالباطل»[1].

ثم قال في أخطاء الدعاة:

«الخطأ العملي الثالث أن المسلمين استخدموا الكلمات وحدها في تبليغ الإسلام، ولم يحاولوا أن يتمثَّلوا الحياة الإسلامية بخصائصها ومميزاتها؛ لأن محاسن المبادىء المجردة لا تستطيع وحدها أن تجذب إلى الإسلام إلا أفراداً قلائل، يتمتعون بالجرأة الخُلُقيَّة الفائقة، والذكاء الكبير؛ لأن الكثرة الكاثرة من المجتمع البشري سوف لا تؤمن بصحة وصدق هٰذه المبادىء؛ إلا إذا رأوها تتبلور في الحياة، وتؤتي ثمارها حلوةً ناضجةً، وتتمثل في الواقع العملي.

لكن المجهودات التي بُذلت عندنا منذ مدة غير قصيرة في سبيل نشر الدعوة لا تتجاوز الخطباء أولي الطاقة اللسانية والبيان الأخَّاذ، والدعاة من أصحاب العاطفة والحماس، والمؤلفين والكتاب من ذوي القلم الرشيق، تجولوا بالناس في فردوس فارغ من الحياة الإسلامية، لا يمس الواقع مسّاً، وبينما كان هٰؤلاء كلهم يأتون بالعجب العجاب في الإشادة بذكر المحاسن المدنية والاجتماعية للإسلام، كانت المجتمعات الإسلامية كلها مشحونة بجميع المفاسد الجاهلية التي تكذِّب دعاويهم الفارغة في الواقع العملي، وبما أن لسان الواقع العملي الصامت أشد وأغنى تأثيراً من لسان الواقع الناطق الصارخ؛ فقد ذهبت هذه المواعظ كلها أدراج الرياح، ولم تأت بتحول ما في الحياة.

---

(١) «منهج الدعوة إلى الله» للإصلاحي، وقد نقلته مع طوله لأهميته.

ولو نهض هناك أناس من عباد الله، وحاولوا أن يؤسّسوا مجتمعاً على أساس المبادىء التي آمنوا بها؛ لكانوا قد خدموا الدعوة الإسلامية ـ ولو أخفقوا في محاولتهم ـ خدمة أحسن وأكبر ما لم يستطيعوا بعد كل نجاح أحرزوه فيما يتصل بمواعظهم ومحاضراتهم وخطاباتهم.

لا يغيبنَّ عن البال أنه لا يكفي في إثبات الإسلام خيراً وصلاحاً للبشرية أن تتلى على الناس قصص مؤثرة جذابة من صحائف العهد الماضي الإسلامي الزاهر، كما لا يكفي أن توضع مقالات أو تلقى محاضرات حول الإمكان العقلي في بلورتها وجعلها سارية المفعول من جديد في العالم البشري، بل الطريقة الوحيدة الفعالة المثمرة أن تتحقق هذه المبادىء كلها، وتتجسَّد في الحياة الاجتماعية التي تعيشها الجماعة المؤمنة بها، ولكن المؤسف المحزن جداً أنه تم كل شيء إلا هذا الشيء المطلوب.

الخطأ الرابع العملي: أن المسلمين استخدموا في نشر الدعوة أمثال تلك الطرق السطحية التي يباشرها التبشير المسيحي أو الفرقة الآرية من الهنادك في الهند، فالحبائل التي اصطاد بها المسيحيون الطبقات المنكوبة البائسة في العالم حاول المسلمون أيضاً أن يستخدموها أو يجربوها.

وكذلك المباحثات الفارغة، والتجاذب في المناقشات، والحوار، والثرثرة الزائفة التي استخدمتها الفرق الباطلة والديانة الكاذبة من أجل توسيع رقعتها؛ أراد المسلمون أن يستعملوها، مما أفقد الإسلام اعتباره في أعين غير المسلمين، وبدؤوا يفهمون أن الإسلام ليس إلا حبالةً يستغلُّها أناس لاستدرار الرزق وجلب المنافع، أو هو دين كسائر الأديان، لا يهمه

إلا تكثيف عدد أتباعه.

وقد كانوا معذورين بعض الشيء في هذا الاعتقاد؛ لأنهم إذا جرَّبوا أن المسلمين يُسَخِّرون دينهم لنفس الهدف الذي كانوا يستغلون هم أديانهم له، وبنفس الطريقة التي كانوا يتبعونها هم في هٰذا الصدد، فأعرضت عيونهم عن الإسلام؛ ولم يكن ليعظم في أعينهم في هٰذا الوضع الشائن المزري الذي بلغ به أبناؤه.

الخطأ الخامس: أن المسلمين مهما كانوا يرون الحاجة إلى الأهليات لعمل من الأعمال، فإنهم لا يرون حاجة ما إلى أي أهلية لوظيفتين هما: الإمامة، وتبليغ الدين!

فقد مضى على المسلمين حينٌ من الدهر لم يكن ليؤم الناس فيه إلا أميرهم، أو مَن ينصبه الأمير إماماً، ولكن اليوم أصبح المسلمون يطلبون لتقليد منصب الإمام في الصلاة مَن لا يتأهَّل لأي وظيفة من وظائف الحياة.

وكذٰلك؛ فقد مضى عليهم زمن كان يرى فيه كل فرد من أفراد الأمة المسلمة أن الله لم يخرج هٰذه الأمة إلا لكي تقوم بتبليغ الدين إلى الناس بنفس الشعور بالمسؤولية، وبنفس الحماس والنشاط، وبنفس التألُّم والإخلاص الذي بلَّغه بها رسولها العظيم ﷺ إليها، وقد كانت الخلافة الإسلامية بجميع شُعبها، وأجزائها، وأقسامها، وسيلةً للقيام بهٰذه المسؤولية النبوية، التي عادت على هٰذه الأمة من قِبَلِ نبيها. ولكن المجتمع الإسلامي أصبح اليوم مشغولاً بخدمة نظام جاهلي بجميع أفراده وأعضائه الأذكياء من أولي المؤهلات والصلاحيات.

نعم، قد ينتبه الشعور بهٰذه المسؤولية في قلوب أناس من عباد الله الصالحين، فيجمعون تبرعات من المسلمين، ويعَيِّنون أفراداً يقومون بهٰذا الواجب النبوي على راتب محدَّد، وجلُّ ما يُطالَبُ به هٰؤلاء الموظفون لنشر الدعوة أن يكونوا قد ألمُّوا ببعض المعلومات المتواضعة عن الديانات الأخرى، وأن يستطيعوا الخطابة والمناظرة، فالذين يرغبون في هٰذا العمل يتمرَّنون على الخطابة والمناظرة، ويحصلون على الغث والسمين من المعلومات عن الأديان، ثم يأخذون في تبليغ الإسلام تحت إشراف جمعيَّة أو مؤسسة، وأمثال هٰؤلاء لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، كما لا يعرفون عن غير الإسلام أيضاً، ولا يتصفون بالسيرة الإسلامية، ولا يتحلَّوْن بوصف سوى طلاقة اللسان، والقدرة على إدارة الكلام، والتفنُّن في الحوار والحديث، والبراعة في المناظرة، فأين للإسلام أن يفعل فعله الصحيح بهٰذا الطريق الخاطىء» ا. هـ.

فلزوم سبق العمل أصل من أصولها وسريان مفعولها، فلا بد أن يرى الناس ثمار الإسلام متمثلة من واقع التطبيق في جوانب الحياة؛ ليخاطب لسانُ الواقع العملي شعورَ الناس بدليل ماديٍّ قائم على حياة فيها النضوج والانضباط، أما قول مجرد ليس له من قائله نصيب في التطبيق سوى قصبات صوته، وطلاقة لسانه، وانطلاقه بأسلوب أخاذ، وضروب من القول فارغ من العمل لا يمس الواقع والتطبيق؛ فهٰذا من مواطن النهي في الشرع الشريف، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ مَا لَا تَفْعَلونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولوا مَا لا تَفْعَلونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

ومن هنا فإن أساس أَسْلَمَةِ المعرفة، أَسْلَمَةِ التعليم، أَسْلَمَةِ الثقافة؛ هو: أَسْلَمَة العلماء، فإذا وجدنا العالِم العامل؛ حصلت العلوم والمعارف الإسلامية.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ:

«لم يكنْ نبيٌّ قط إلا كان له من أمَّته حواريُّون وأصحابٌ يتَّبعون أمره، ويهتدون بسنَّته، ثم يأتي من بعد ذلك أمراء يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمَرون، يغَيِّرونَ السننَ، ويظهِرُونَ البدعَ، فمَن جاهدهم بلسانه؛ فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه؛ فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل».

رواه مسلم، وأحمد، وابن بطة في «الإبانة» (رقم ٥٤).

فأولئك الحواريون هم واسطة البلاغ للدعوة على منهاج النبوة، وهم بهجة الدنيا وزينتها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، آمين.

● خامساً:

وعِقْدُ نظام الدعوة إلى الله تعالى على منهاج النبوة شدُّ آصرة التآخي بين المسلمين في وحدة جامعة، تضمُّ ما تناثر من أفرادها تحت سلطان الإخاء في الإيمان، إذ الأصل في الإسلام وجوب الوحدة والائتلاف، وحرمة الفرقة والاختلاف.

وهذه واسطة عقد الدعوة إلى الله تعالى: شدُّ آصرة التآخي بين المسلمين، وتوثيق عرى الولاء بينهم، والحب في الله، والبراءة من كل ما يخالف دينه وشرعه، ونبذ الشقاق والفرقة والتفريق؛ على أساس رسوخ

وحدة الاعتقاد، والتخلق بأحكام القرآن العظيم، وسنة نبيه الكريم ﷺ، كل هٰذا لجلب كل ملائم لحياة الجماعة، ودفع كل مؤلم عنها، وهٰذا معنى ما هو شائع: «الإنسان مدني بالطبع».

والإسلام لهٰذا قد مدَّ وشائج الإخاء، ووثق أواصر النصرة بما نراه مبثوثاً في نصوص الشرع.

وانظر كيف امتنَّ الله على صحابة نبيه ﷺ بآصرة التآخي قبل المنِّ عليهم بنعمة الإيمان، فقال سبحانه:

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولا تَفَرَّقوا واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بينَ قُلوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخواناً وكُنْتُم عَلى شَفَا حُفْرَةٍ مِن النَّارِ فأَنْقَذَكُمْ مِنْها﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وانظر كيف قال النبي ﷺ في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ:

«إنَّ الشيطانَ قد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المصلُّون في جزيرتكم، ولكن في التحريش. . . » الحديث[1].

وما ذاك إلا لأن بذر الشقاق والنزاع لنقض وحدة الجماعة أسرع من نقض الاعتقاد.

فانظر كيف كانت آصرة الإخاء أول لبنة في بناء جماعة المسلمين، ونقضها أول معول لتفتيت جماعة المسلمين.

ومن هنا يرى الناظر في التاريخ أن بدء الانقسام في الأمة سبق تاريخ

---

(١) على هٰذا الحديث الشريف بَنَيْتُ كتاب «خصائص جزيرة العرب»، وبه خرَّجْته.

نقض الاعتقاد.

فقد بدرت بادرة اختلاف بوفاة النبي ﷺ، فرُئِبَ الصدع.

ثم بمقتل أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ، فرُئِبَ الصدع.

ثم بمقتل أمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فانكسر قفل الفتنة، وصار الانقسام في جماعة المسلمين إلى: خوارج، وشيعة.

أما إذا حصل الانقسام العقدي؛ فهو آخر مَعْقِل يُدَكُّ من حصون الإسلام.

وانظر ماذا غشي اليوم من الغواشي؟! مما جعل الغربة الثانية أشد من الأولى.

● **سادساً:**

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام، ولا رسم سوى القرآن والسنة، وهٰذا أصل الملة الحنيفية التي دعا إليها شيخ الأنبياء أبونا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومَن بعده من أنبياء الله ورسله إلى خاتمهم نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيْناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيْمَ حَنِيْفاً ومَا كَانَ مِن المُشْرِكينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِيْنَ . لا شَرِيكَ لهُ وبذٰلكَ أُمِرْتُ وأَنا أَوَّلُ المُسْلِمينَ﴾ [الأنعام: ١٦٠ ـ ١٦٢].

وهٰـذه التسمية هي صبغـة الله، التي رضيها لعباده، فقال سبحانه ممتَنّاً بها عليهم:

﴿صِبْغَةَ اللهِ ومَنْ أَحْسَنُ مِن اللهِ صِبْغَةً ونَحْنُ لهُ عابِدونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقد نعى الله على من رغب عن هٰذا الشعار، فقال تعالى:

﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيْمَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولَقَدِ اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِيْنَ . إذْ قَالَ لهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِيْنَ . ووَصَّى بها إبْرَاهِيْمُ بَنِيْهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ الله اصْطَفى لَكُمُ الـدِّينَ فَلا تَمـوتُنَّ إلا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إذْ قَالَ لِبَنيهِ ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبْرَاهِيْمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحاقَ إلٰهاً واحِداً ونَحْنُ لهُ مُسْلِمونَ . تلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبَتْ ولكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلونَ . وقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهِيْمَ حَنِيْفاً ومَا كَانَ مِن المُشْرِكينَ . قُولُوا آمَنَّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إلَيْنا ومَا أُنْزِلَ إلى إبْراهِيْمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْباطِ ومَا أُوتِيَ مُوْسى وعِيْسى ومَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلِمونَ . فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ . صِبْغَةَ اللهِ ومَنْ أَحْسَنُ مِن اللهِ صِبْغَةً ونَحْنُ لهُ عابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٨].

هٰذا هو السِّلْمُ الذي لا يقبلُ الله من أحدٍ ديناً سواه؛ قال تعالى:

﴿يـا أَيُّهـا الـذينَ آمَنوا ادْخُلوا في السِّلْمِ كَافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ

الشَّيْطانِ إنَّهُ لكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والآيات في هٰذا عن أنبياء الله ورسله: إبراهيم، وابنه إسماعيل، وموسى، وعيسى، وغيرهم من أنبياء الله ورسله؛ كثيرة في القرآن الكريم[1]، كلهم تحت لواء الإسلام، ولقب المسلمين، قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ إبْرَاهِيْمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وما كَانَ مِن المُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال ابن القيم[2] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمٰن، وهو دين الإسلام، وهو دين أهل السماوات وأهل التوحيد من أهل الأرض، وخمسة للشيطان، وهي: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة، ودين المشركين» ا. هـ.

وكما أن كلمة التوحيد (لا إلٰه إلا الله) هي أساس الملة، فإن كلمة (الإسلام) هي أم الكلمات الشرعية التي يتسمى بها الآدميُّون، فيقال لهم: المسلمون.

ولهٰذا؛ فإن كلمة التوحيد وحَّدت الناس تحت شعار واحد: الإسلام؛ قال تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّـكَ صِدْقِـاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وهُو السَّمِيْعُ العَلِيْمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) منها الآيات في السورة الاتية.

(٢) «مدارج السالكين» (٣ / ٤٧٦).

وقالَ تعالى :

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ فَهُوَ عَلى نُوْرٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

فاسمُ المسلم وما في كفّته من أسماء المدح؛ مثل: المؤمن، المتقي، الصالح . . . هي أسماء المكلَّفين التي علَّق عليها الشارع المدح، وفي مقابلها ما علق عليه الذم، مثل: الكافر، المنافق، الفاسق . . . وعلى هٰذين المتقابلين مدار الجزاء؛ ثواباً وعقاباً.

وعليه؛ فإن ما دون ذٰلك من ألقاب أُحدثت في الشرع بالأمس، هي نظيرة الألقاب التي أحدثت اليوم، وكلها في المنع من بابة واحدة، في رسمها واسمها:

فلا يسوغ للمسلم أن يتلقب بأنه: قدري، أو مرجىء، أو خارجي، أو أشعري، أو ماتُريدي، أو معتزلي . . .

كما أنه لا يسوغُ له أن يضيف اليوم: إخواني، صوفي، تبليغي . . .

وهٰكذا؛ فالمنع من جهتين: أنه لقب لم يَرِدْ به الشرع، أو لهٰذا ولما فيه من مخالفات لنصوص الشرع في المادة والرسم.

وعليه؛ فلا يجوز إحداث واختراع شعارات وألقاب لم يرد بها الشرع، فإنها «تكون في البداية كلمة وفي النهاية مذهب ونحلة»! فلا تغتر! وإن زخرفه أهل الأهواء، والله أعلم.

وإليك ما كنت قيدته في كتاب «حلية طالب العلم»[١] مضمناً له

(١) «حلية طالب العلم» (ص ٦١ ـ ٦٤) (رقم ٦٥).

بكلام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«أهل الإسلام ليس لهم سِمَةٌ سوى الإسلام والسلام.

فيا طالب العلم! بارك الله فيك وفي عِلْمك، اطلب العِلْمَ، وادع إلى الله تعالى على طريقة السَّلف، ولا تكن خَرَّاجاً ولَّاجاً في الجماعات، فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادةً ومنهجاً، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام.

وأعيذك بالله أن تتصدَّع، فتكون نهاباً بين الفرق والطوائف والمذاهب الباطلة والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها.

فكن طالب علمٍ على الجادة؛ تقفو الأثر، وتتَّبع السنن، تدعو إلى الله على بصيرة، عارفاً لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم.

وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة ـ التي لم يعهدها السلف ـ من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أَوْهنتْ حَبْلَ الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحذر رحمك الله أحزاباً وطوائف طاف طائفها، ونجم بالشر ناجمها، فما هي إلا كالميازيب، تجمع الماء كدراً، وتفرقه هدراً؛ إلا مَن رحمه ربك، فصار على مثل ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند علامة أهل العبودية[1]:

---

(١) «مدارج السالكين» (٣ / ١٧٢).

«العلامة الثانية: قوله: «ولم يُنْسَبوا إلى اسم»؛ لم يشتهروا باسم يُعرَفون به عند الناس، من الأسماء التي صارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضاً؛ فإنهم لم يتقيَّدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيُعْرَفون به دون غيره من الأعمال، فإن هٰذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيَّدة، وأما العبودية المطلقة؛ فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم، ولا إشارة، ولا اسم، ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتِّباع. وعن خِرْقَته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيْدونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِيْ بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ . رِجالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وعن نسبه؟ قال:

أَبِـي الإِسْـلَامُ لَا أَبا لِيْ سِوَاهُ
إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِعَـادٍ أَوْ تَمِـيْمِ

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «مالك ولها؟! معها حِذاؤها وسقاؤها، تَرِدُ الماء، وترعى الشجر، حتى تلقى ربها».

واحَسْـرَتَاهُ تَقضَّى العُمْرُ وانْصَرَمَتْ
سَاعَـاتُـهُ بَيْنَ ذُلِّ العَجْـزِ والكَسَلِ

والقَـوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاةِ وقَدْ
سَارُوا إلى المَطْلَب الأعْلَى عَلَى مَهَلِ »

ثم قال :

«قوله : «أولئك ذخائر الله حيث كانوا» ؛ ذخائر الملك : ما يخبِّىء عنـده ، ويَدَّخره لمهماته ، ولا يبذله لكل أحد ، وكذلك ذخيرة الرجل : ما يَدَّخره لحوائجه ومهماته .

وهؤلاء ـ لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم ، غير مشار إليهم ، ولا متميزين برسم دون الناس ، ولا منتسبين إلى اسم طريق ، أو مذهب ، أو شيخ ، أو زيٍّ ـ كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة ، وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفـات ، فإن الآفـات كلهـا تحت الـرسـوم والتقيد بهـا ، ولـزوم الطرق الاصـطلاحية ، والأوضـاع المتداولة الحادثة ، هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون ، والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة ، والسير إلى الله ، وهم ـ إلا الواحد بعد الواحد ـ المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود .

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال : ما لا اسم له سوى السنة .

يعني : أن أهل السنة ليس لهم اسم يُنْسَبون إليه سواها .

فمن الناس من يتقيَّد بلباس لا يلبس غيره ، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره ، أو مشية لا يمشي غيرها ، أو بزي وهيئة لا يخرج عنهما ، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها ـ وإن كانت أعلى منها ـ ، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره ـ وإن كان أقـرب إلى الله ورسـولـه منه ـ ؛ فهؤلاء كلهم

محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل، فترى أحدهم يتعبَّد بالرياضة والخلوة، وتفريغ القلب، ويعد العلم قاطعاً له عن الطريق، فإذا ذُكر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ عَدَّ ذلك فضولاً وشرّاً، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك؛ أخرجوه من بينهم، وعدوه غَيْراً عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإن كانوا أكثر إشارة، والله أعلم» ا. هـ.

● **سابعاً:**

وأهل الإسلام ليس لهم رسم سوى الكتاب والسنة، والسير في الدعوة إليهما على مدارج النبوة، وهم كما وصفهم النبي ﷺ بقوله:

«من كانَ على مثل ما أنا عليه وأصحابي».

وهم الذين سماهم ﷺ: الجماعة.

وجماعة المسلمين: الصحابة، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وهم الطائفة المنصورة؛ كما وصفهم النبي ﷺ بذلك.

وهم الفرقة الناجية؛ كما وصفهم النبي ﷺ بذلك لما ذكر الفرق الضالة.

وهم المنتسبون لسنته ﷺ وطريقته، الراغبون فيها دون ما سواها من الأهواء لما مالت بأهلها؛ لقوله ﷺ:

«مَن رغب عن سنَّتي ؛ فليس مني» .

وكما في حديث العرباض بن سارية المشهور.

ولما تشعَّبَت بالأمة الأهواء ؛ صاروا هم أهل السنة والجماعة دون من سواهم .

وهم السلف الصالح ، فمَن تبع أثرهم ، ومِن هنا ؛ لما ظهرت البدع والأهواء المضلة ؛ قيل لمعتقدهم: السلفي ، أو العقيدة السلفية .

وهم الذين يمثلون الصراط المستقيم ؛ سيراً على منهاج النبوة ، وسلفهم الصالح ؛ لهٰذا فليسوا بحاجة إلى التميز بلقب ، أو رسم ، أو اسم ، أو شعار ، لم يرد به النص .

ولم يحصل تمام البروز والظهور لهٰذه الألقاب الشريفة لجماعة المسلمين إلا حين دبَّت في المسلمين الفرقة ، وتعدَّدت على جنبتي الصراط الفرق ، وتكاثرت الأهواء ، وخلفت الخلوف ، فبرزت هٰذه الألقاب الشريفة للتميز عن معالم الفرق الضالة ، وهي مع ذٰلك ألقاب لا تختص برسم يخالف الكتاب والسنة ؛ زيادة أو نقصاً ، وإنما يمثلون في الحقيقة والحال الامتداد الطَّبَعي لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في الشكل والمضمون ، والمادة والصورة .

وعلى هٰذا نشأت الدعوات الإصلاحية في نواحي الأرض ، ليس لها اسم ولا رسم ، لا يقتضيه منهج الشرع ؛ في الجزيرة ، ومصر ، والشام ، والهند ، والجزائر ، وبغداد ، وغيرها : دعوة إلى الكتاب والسنة ، فعلى نورهما يدعون عباد الله إلى الله ؛ إلى صفاء الاعتقاد ، ونشر راية التوحيد ،

والحكم بما أنزل الله، والقيادة على منهاج النبوة، والخلافة الراشدة، ومناصحة الولاة، وتحطيم مظاهر الشرك والوثنية والأهواء والبدع، وتصحيح مسار الناس إلى ربهم في أعمالهم وأقوالهم، وتخليصها من الآراء والأهواء المضلة تحت سلطان الكتاب والسنة.

وجماعة المسلمين واحدة، لا تتعدد فوق أي أرض، وتحت أي سماء، ليس لها رسم معين سوى النص الشرعي وموجبه، فهي الدعوة إلى الله بيسرها وسهولة تبليغها؛ كما كانت في الصدر الأول.

وعليه؛ فإن أي فرقة أو حزب أو جماعة تعيش تحت مظلة الإسلام باسم معين أو رسم خاص؛ فهي من جماعة المسلمين، وتقترب وتبتعد من الصراط المستقيم الذي عليه جماعة المسلمين بقدر ما لديها من مناهج، وخطط، وتصورات يقرُّها الإسلام، أو ينفيها.

أما التي يكون انتسابها إلى الإسلام تلبيساً وظلماً؛ كالبابية، والبهائية، والقاديانية، والبريلوية... فهٰذه فرق كافرة، لا دخل لها تحت سرادق بحثنا.

وختاماً؛ فإن الحق واحد لا يتعدد، فالتزمه في الكتاب والسنة.

والزم جماعة المسلمين؛ فهي بِحَقٍّ الجسم الذي لا يمكن التجمع الإسلامي في العالم على صعيد واحد إلا على أساسه.

والزم إمامهم، وإن فعل وفعل؛ ما لم تر كفراً بواحاً عليه من الله برهان.

تنبيه على خطأ كبير:

بعض من الذين كتبوا عن الجماعات والفرق الإسلامية المعاصرة للموازنة بينها ونقدها يذكرون من أقسامها أهل السنة والجماعة!

وهٰـذا خطأ كبير في الفهم والتصور والبعد عن الحقيقة، فإن أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث؛ هم جماعة المسلمين، وليست هٰذه في شكلها ومضمونها إلا دعوة الإسلام بجميع ما تعنيه هٰذه الكلمة؛ بخلاف الجماعات الأخرى، فهي أحزاب وفرق: منها ما فيه دخل، ومنها ما يدعو إلى شعبة من شعب الإسلام دون الأخرى.

ومعاذ الله أن يكون المسلمون جميعهم جماعاتٍ وأحزاباً، بل إن الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية ـ جماعة المسلمين الملتزمة بالكتاب والسنة والدعوة إليها ـ ما زالت ولن تزال باقية قائمة إلى أن يأتي أمر الله.

وانظر إلى فضل فقه المتقدمين في دين الله على المتأخرين حين كتبوا عن الفرق والملل والنحل، حيث خصصوا كتبهم لما تناثر من الفرق (الجماعات) على جنبتي الصراط المستقيم (طريق جماعة المسلمين، أهل السنة والجماعة، أتباع السلف الصالح)، فافهم، والله أعلم.

● **ثامناً:**

الإسلام كل كامل، وتامٌّ غير منقوص، وأحكامه بعضها مترابط ببعض.

فالزيادة فيه طعن في كماله وإتمامه، والنقص منه جحد لأحكامه، فكل حَدَثٍ فيه زيادةٌ أو نقصٌ: بدعةٌ، ضلالةٌ، مردودٌ على صاحبه،

والنصوص في هٰذا مشهورة منتشرة.

وعليه؛ فلا يجوز لمسلم بحال التنازل عن شيء منه، أو خلطه بباطل، أو تغيير لحكمه، فأي فرقة أو جماعة يكون من منهجها تجزئة الإسلام ـ بمعنى الأخذ بأحكام دون أخرى ـ، أو التزام ما لم يرد به الشرع؛ فهي بدعة ضلالة، لا يجوز التزامها.

واعتبر هٰذا في مناهج الفرق والأحزاب والجماعات، وإن دق.

وعلى هٰذا تظاهرت نصوص الشرع؛ قال الله تعالى:

﴿ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والدعوة إلى الخير هو ما كُلِّفَتْ به الأمة، وهو الإسلام بأجمعه، لا بجزء منه دون آخر، وقد قال الله تعالى بعد ذكر بعض أنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ:

﴿وجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرِنَا وأَوْحَيْنَا إلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإقَامَ الصَّلاةِ وإيْتَاءَ الزَّكَاةِ وكَانُوا لَنا عَابِدينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ولذا؛ فإن أمة العلماء لن تؤدِّي واجب الدعوة إلا على هٰذا الأمر الكلي الجامع: الدعوة إلى الخير، الإسلام بكله لا بجزء منه، وأن تقف نفسها عليه علماً وعملاً، ونشراً ودعوة، مستخدمة جميع طاقاتها وإمكاناتها في سلمها وحربها، ومنشطها ومكرهها، وأثرة تكون عليها، والله المستعان.

● **تاسعاً:**

من مسلمات الاعتقاد عقدُ سلطان الولاء والبراء تحت اسم الإسلام،

ورسم أحكامه، فلا يجوز بحال عقده على شعار بدعي؛ من اسم، أو رجل، أو طائفة، أو ما يفضي إلى بدعة أو معصية. . . وهٰكذا.

وإن من أبغض الناس إلى الله مُبْتَغِياً في الإسلام سنة الجاهلية، مطلقة أو مقيدة، يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو صابئة، أو وثنية، أو شركية، أو عصبية لرجل، أو لطائفة، أو لرسم دون آخر. . . وهٰكذا فكل هٰذا جاهلية.

قال شيخ الإسلام[1] ـ رحمه الله ـ:

«كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن؛ من نسب، أو بلد، أوجنس، أو مذهب، أو طريقة؛ فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار؛ قال النبي ﷺ:

«أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!».

وغضب لذٰلك غضباً شديداً» ا. هـ.

وقال ابن القيم[2] ـ رحمه الله ـ:

«الدعاء بدعوى الجاهلية؛ كالدعاء إلى القبائل، والعصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب، والطوائف، والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصبية، وكونه منتسباً إليه، يدعو إلى ذٰلك، ويوالي عليه ويعادي، ويزن الناس به، فكل هٰذا من دعوى الجاهلية» ا. هـ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ١٧ و٧٩).

(٢) بواسطة «تيسير العزيز الحميد» (ص ٥١٥).

● **عاشراً :**

إذا كان القصد من التجمع الإسلامي هو الإصلاح والعودة بالمسلمين إلى حقيقة الإسلام ؛ فلا بد إذاً أن يكون التجمعُ الإسلامي جماعةَ المسلمين ، على أساس منهاج النبوة : الكتاب والسنة ، في الشكل والمضمون ، والمادة والصورة ، إذ حقيقة الإصلاح : إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله ؛ بإزالة ما طرأ عليه من فساد ، وما علق به من شائبة الهوى والاختلال ، وهٰذا لا يكون إلا بالسير على منهاج النبوة لا غير ، لا على فكرة تحيا بالقناعة بها ، وتموت بعدم القائم بها ، أما الإسلام على منهاج النبوة ، فالدعوة إليه هي الباقية ؛ لأنها غير مبنية على فكرة ، وإنما هي الدعوة إلى الله ، وهٰذه لها البقاء والحفظ والدوام حتى قيام الساعة .

وعليه ؛ اعتبر الجماعات الإسلامية بهٰذا ؛ فإنه من أدق التعابير .

● **حادي عشر :**

اعلم أن الدين على ثلاث مراتب : الإسلام ، فالإيمان ، فالإحسان ، وهي مرتّبة ترتيباً فطرياً شرعياً ، كل واحدة تتولد من سابقتها ، وتبنى عليها ، ولا يمكن لمرتبة تلي سابقتها أن تتولد إلا إذا كانت السابقة متكاملة ، وإلا فلا .

فإذا كان الإسلام ـ وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ـ قد أخذ به المسلم متكاملاً ؛ تولدت منه المرتبة التي تليه : الإيمان . . . وهٰكذا .

واعتبر أصول الجماعات والأحزاب بهٰذا فيما تفتقده من أصول ، وما

تحويه من تناقض.

● **ثاني عشر:**

اعلم أن الطرق كلها إلى الله مسدودة؛ إلا طريق واحد: الصراط المستقيم، طريق الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى:

﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِيْ مُسْتَقِيْماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال ابن عطية، وعنه القرطبي[1]:

«وهٰذه السبل تعم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وأهل البدع والضلالات؛ من أهل الأهواء، والبدع، والشذوذ في الفروع، وغير ذٰلك من أهل التعمُّق في الجدل، والخوض في الكلام... هٰذه كلها عُرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد» ا. هـ.

وقال تعالى:

﴿يٰسٓ. والقُرْآنِ الحَكِيْمِ. إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ. عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يٰس: ١ - ٤].

وقالَ تعالى:

﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ. صِرَاطِ اللهِ الذي لهُ ما في السَّماواتِ ومَا في الأرْضِ ألا إلى اللهِ تَصِيْرُ الأمورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٧ / ١٣٨).
وانظر: «اللمع» لابن بيدكين (١ / ٩ - ١٠).

وقالَ تعالى :

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

«فالتزم - رحمك الله - المنهج المستقيم، وما نزل به التنزيل، وسنة الرسول ﷺ، وما نص عليه السلف الصالح، وعليك بالسنة والجماعة؛ ترشد إن شاء الله تعالى، وليس لك أيها اللبيب أفضل من لزوم ما بين الدفتين، والإكثار من النظر فيه، وتفهُّم معانيه، ولزوم السنة والجماعة، ودع عنك العوج، ولِمَ؟ وكيفَ؟ فإن الأهواء مالت بأهلها، فأوردتهم عذاباً أليماً»(١) ا. هـ.

● **ثالث عشر: في الأشخاص:**

في بيان أمور دل عليها الشرع والاستقراء في إنزالِ كُلٍّ مَنْزِلَتَهُ:

١ - لا يجوزُ أن ينصب شخص للأمة يُدْعى إلى طريقته، ويُوَالى ويُعادَى عليها؛ سوى نبيِّنا ورسولنا محمد ﷺ، فمن نصب سواه على ذلك؛ فهو ضال مبتدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) - رحمه الله تعالى -:

«وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها؛ غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع

---

(١) «التنبيه...» للملطي (ص ٤٦) باختصار.

(٢) «الفتاوى» (٢٠ / ١٦٤).

الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام، أو تلك النسبة، ويعادون» ا. هـ.

وفي كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» ما نصه[1]:

«قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«مَن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل؛ فهو من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً»[2].

وهذه حال كثير من الجماعات والأحزاب الإسلامية اليوم، إنهم ينصبون أشخاصاً قادة لهم، فيوالون أولياءهم، ويعادون أعداءهم، ويطيعونهم في كل ما يفتون لهم؛ دون الرجوع إلى الكتاب والسنة، ودون أن يسألوهم عن أدلتهم فيما يقولون أو يفتون.

ومثل هذه المناهج لا تصلح أن تكون أساساً للتغيير ووحدة صف المسلمين، بل ولم يحدث أن توحدت كلمة المسلمين على مذهب من المذاهب، أو على حزب من الأحزاب؛ رغم المحاولات التي بذلتها بعض الدول من أجل فرض هذا المذهب أو ذاك الاتجاه القَبَلي أو الحزبي.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا لا نختصر الطريق، ونعود إلى التمسك بالمنهج الأول الذي يصلح به أمر هذه الأمة من قبل، ولا صلاح لأمتنا إلا به؟

قال ﷺ:

---

(١) لمؤلفه محمد سرور بن نايف زين العابدين (١ / ١٦).

(٢) «الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام» (٢ / ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

«إنَّ الإسلامَ بَدَأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»[1]» ا. هـ.

٢ ـ ليس لأحد من خلق الله أن يخترع في الشريعة من رأيه أمراً لا يوجد عليه منها دليل، وهٰذا الاختراع عين البدعة، ومخترعه هو المبتدع[2].

٣ ـ أن تعلم أن أهل الأهواء والبدع هم شر من أهل المعاصي الشهوانية، فالمبتدع شر من العاصي، إذ فتنُ الشبهات أشرُّ من فتن الشهوات.

وهٰذا المعنى الشريف قد قرره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في مواضع؛ منها قوله[3]:

«أهل البدع شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع».

ثم أخذ ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان ذٰلك.

● **رابع عشر: لا حلف في الإسلام:**

هٰذا من مشاهير السنن في «الصحيحين» وغيرهما، التي قطع الإسلام بها جميع المواد التي كانت أساساً للولاء والبراء في الجاهلية، وجعل الإسلام وحده مادة الولاء والبراء، وقد عقد موجبه ابن بطة العُكْبَرِيّ الحنبلي (ت ٣٨٢هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب «الشرح والإبانة على

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، «مختصر مسلم للمنذري»، باب: الإيمان، (٢٤ / ١).

(٢) «الاعتصام» (١ / ٣٥٩).

(٣) «الفتاوى» (٢٠ / ١٠٣ ـ ١٠٥ و١١ / ٤٧٠ ـ ٤٧١ و٣٦ / ٦٠).

أصول السنة والديانة. . . ».

وفي «مصنفة النظم الإسلامية»[1]:

«لا حلف في الإسلام، ومن أجل هٰذا العقد العام - أي عقد الإسلام والالتزام به أوامره ونواهيه - قرر الفقهاء أنه لا حلف في الإسلام، وكفى بعقد الإسلام حلفاً، فلضرورة المساواة بين المسلمين في هٰذا العقد العام لا يجوز أن يتحالف بعض المسلمين من دون بعضهم الآخر، إذ إن ذٰلك يميز الحلفاء على سائر المسلمين، ويجعل لهم حقوقاً ليست لسائرهم، هٰذا ولو لم يكن تحالف البعض نكاية في البعض الآخر؛ لأن مجرد التمييز بمحالفة خاصة، يضع غير الحليف في مكان أدنى من الحليف.

وقد بيَّن النبي ﷺ ذٰلك، فأقر ما تم من أحلاف الجاهلية؛ كحلف المطيّبين، وقال:

«لا حلف في الإسلام» أو: «لا تحالف في الإسلام».

وهو متفق عليه، وفي أكثر من مناسبة» ا. هـ.

فانظر قوله السديد، وتعليله السليم: «لأن مجرد التمييز بمحالفة خاصة يجعل غير الحليف في مكان أدنى من الحليف».

وهٰكذا الانتماء إلى الفرق المعاصرة، يجعل المنتسب إليها في مكان فوق غيره - في نظرهم -، ولهٰذا قال ﷺ:

«لا حلف في الإسلام».

---

(١) (ص ٣٣١) لمؤلفها الشيخ مصطفى وصفي - رحمه الله تعالى -.

وللعلماء على تتابع القرون أبحاث وتقريرات مهمة في رفض الحزبية المتميزة عن منهاج النبوة باسم أو رسم؛ منهم: الشاطبي، وابن تيمية، وابن القيم، والمقريزي، والطاهر بن عاشور، والشنقيطي، والبشير الإبراهيمي، وغيرهم - رحمهم الله تعالى -.

● **الخامس عشر**[1]:

كل بدعة أحدثت في الإسلام، كان أولها صغيراً يشبه الحق، ثم صارت كبيرة، فدخل فيها مَن لم يستطع الخروج منها، فاحذرْ صِغارالبدع، فإنها صَغَار.

● **السادس عشر**[2]:

المُخالِف في أصل من أصول الشريعة العملية لا يقصر عن المخالف في أصل من الأصول العقدية بجامع هدم القواعد الشرعية، وذلك بدليل وصف النبي ﷺ للفرقة الناجية بقوله:

«على ما أنا عليه وأصحابي».

● **السابع عشر**:

الإسلام مبنِيٌّ على الوحدانية، فالرب الخالق المعبود واحد، والرسول واحد، والقبلة واحدة، والحق واحد، فالدعوة إلى ذلك واحدة بسبيل واحدة، والمسلمون حزب واحد:

---

(١) «شرح السنة» (ص ٢٣) (رقم ٥)، «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٢٠٩) مهم.

(٢) «الموافقات» (٤ / ١٧٨).

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والوشيجةُ بينهم هي الإسلام:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمَاً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

والطريق الجامعة لذلك، الموصلة إلى الله والدار الآخرة هي الإسلام:

﴿وأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ...﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهي الشريعة لا غير:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلى شَرِيْعَةٍ مِن الأَمْرِ فاتَّبِعْها﴾ [الجاثية: ١٨].

وهٰذا هو الحق، واحد لا يتعدَّد:

﴿فَمَاذا بَعْدَ الحَقِّ إلا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

ودارهم هي دار الإسلام، وما عداها؛ فلا:

﴿قُـلْ هٰذهِ سَبِيلي أَدْعُو إلى اللهِ عَلى بَصِيْرَةٍ أنا ومَن اتَّبَعَني...﴾ [يوسف: ١٠٨].

في غيرها من النظائر.

وعليه؛ فإن تعدد السبل بتعدد الأحزاب حَلٌّ لعُرَى الجماعة، وتبديد للسبيل إلى سبل، بينهما من الاختلاف والاضطراب ما هو معلوم؟

● **الثامن عشر:**

الأصـل لزوم الجماعة، وتحريم الفرقة والانسلال عن ربقة الوفاق

التي تؤول بالأمة إلى أقسام وشيع، وأن الفرق المنشقة عن جماعة المسلمين في ضلال.

وقد صحَّ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«افتَـرَقَتِ اليهـود على إحدى وسبعين فرقةً، والنصارى مثل ذٰلك، وتفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقةً».

رواه الترمذي[1].

وفي رواية:

قالوا: وما هي يا رسول الله؟

قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2].

---

(١) في طرق هٰذا الحديث وتخريجه وبيان ألفاظه رسالة باسم «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق هٰذه الأمة» للشيخ سليم الهلالي، طبع دار الأضحى بعمان، عام ١٤٠٩هـ.

وانظر: «السلسلة الصحيحة» (الأحاديث رقم: ٢٠٣ و٢٠٤ و٢٧٠ و٢٢٠٨ و٢٢٩٥ و١٤٩٢ و١٦٨٣ و١٩٥٥ و١٩٥٩ و١٩٦٠ و١٩٦١ و١٩٦٢)، و«مشكاة المصابيح» (رقم ٦٢٨٣)، و«صحيح الجامع» (رقم ٧١٦٧ و٧١٦٩)، و«منهاج السنة النبوية» (٢ / ١٥) طبع جامعة الإمام، و«صفة الغرباء من المؤمنين» للآجري (ص ٢٧ ـ ٢٨)، و«أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى» (ص ٢٨ و٣٤ ـ ٣٥).

(٢) هٰذه الرواية من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ وغيره.

ومداره عند الترمذي (٢٦٤١)، وابن وضاح (ص ٨٥)، والعقيلي (٢ / ٢٦٢)، والحاكم (١ / ١٢٩) على عبدالرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف، وقد حسنه الترمذي. =

وفي رواية أبي داود:

«. . . وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وفي رواية أخرى:

«وإنه سيخرج من أمتي أقوامٌ تَجَارى بهِم تلكَ الأهواءُ كَما يَتَجَارى الكَلَبُ بصاحبِهِ، لا يبقى منهُ عرقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله».

وهٰذا الافتراق لا يُراد به مطلق الافتراق، بل الافتراق المقيد، أي: الذي تصير به الأمة شيعاً، فتفقد آصرة التآلف والتآخي؛ لتعلُّق كل فرقة بحبل ووشيجة على خلاف ما تعلَّقت به الأخرى، ومستقل ومستكثر، وكل بحسب ما لديه من سبب يَقْرُب أو يَبْعُد من الصراط المستقيم.

وإلى هٰذا المعنى ألمح الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الاعتصام» (٢ / ٤٠٩)، فقال:

«وهو يحتمل أن يكون افتراقاً على ما يعطيه مقتضى اللفظ، ويحتمل أن يكون مع زيادة قيد لا يقتضيه اللفظ بإطلاقه، ولكن يحتمله؛ كما كان لفظ الرقبة بمطلقها لا يشعر بكونها مؤمنة أو غير مؤمنة، لكن اللفظ يقبله، فلا يصح أن يُراد مطلق الافتراق، بحيث يطلق صور لفظ الاختلاف على معنى واحد؛ لأنه يلزم أن يكون المختلفون في مسائل الفروع داخلين تحت إطلاق اللفظ، وذٰلك باطل بالإجماع، فإن الخلاف من زمان

= وطرقها الأخرى فيها ضعفاء، لكنَّها تتقوَّى بمجموعها.

وانظر: «مجمع الزوائد» (٧ / ٢٥٩)، و«أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى» (ص ٢٨ ـ ٣٥).

الصحابة إلى الآن واقع في المسائل الاجتهادية، وأول ما وقع الخلاف في زمان الخلفاء الراشدين المهديِّين، ثم في سائر الصحابة، ثم في التابعين، ولم يَعِبْ أحدٌ ذلك منهم، وبالصحابة اقتدى مَن بعدهم في توسيع الخلاف، فكيف يمكن أن يكون الافتراق في المذاهب مما يقتضيه الحديث؟ وإنما يُراد افتراق مقيد، وإن لم يكن في الحديث نصٌّ عليه، ففي الآيات ما يدل عليه: قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُوْنُوا مِنَ المُشْرِكِيْنَ . مِنَ الذينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على التفرُّق الذي صاروا به شيعاً.

ومعنى «صاروا شيعاً»؛ أي: جماعات؛ بعضهم قد فارق البعض، ليسوا على تآلف ولا تعاضد ولا تناصر، بل على ضد ذلك، فإن الإسلام واحد، وأمره واحد، فاقتضى أن يكون حكمه على الائتلاف التام لا على الاختلاف.

وهذه الفُرقة مشعِرَة بتفرق القلوب المشعر بالعداوة والبغضاء، ولذلك قال:

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فبين أن التأليف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى

واحد، وأما إذا تعلَّقت كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى؛ فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله تعالى:

﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِيْ مُسْتَقِيْماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» ا. هـ.

وكذٰلك هٰذه الفرق إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية بأحد أمرين:

الأول: بأمور كلية في الدين، وقاعدة من قواعده الشرعية التي ينطوي تحتها عدد من الجزئيات.

الثاني: تكاثر الجزئيات المخترَعَة وإنشاؤها.

أما وقوع الزلة والفلتة؛ فلا يعد مرتكبها مفارقاً، فافهم.

وقد بسط الشاطبي ـ رحمه الله ـ هٰذا في «الاعتصام» (٢ / ٤١٥ ـ ٤١٦)، وبيَّنْتُ في «التعالم» (ص ٧٩ ـ ٨٠) بمبحث مبسوط، من أن العالم لا يُتْبَع بزلَّتِه ولا يُؤخذُ بهَفْوَته.

وها هنا أمران مهمان[1]:

الأول: أن كل داخل تحت راية القرآن ـ من سني أو مبتدع ـ يدَّعي أنه هو الفرقة الناجية، وهو جماعة المسلمين، فمقياس الفصل في ذٰلك هو الكتاب والسنة، وذٰلك ما جعله النبي ﷺ علامةً تَحْكُمُ وصفَ الفرقةَ الناجيةِ، فقال:

(١) انظر «الاعتصام» (٢ / ٤٢٠ ـ ٤٣٠).

«ما أنا عليه وأصحابي».

فلينتبه.

الثاني: إذا علمنا أن الفرقة المذمومة هي الداعية إلى التقاطع والتَّدابر؛ فاعلم أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فمَن بعدهم مِن التابعين، ومِن الأئمة الفقهاء الأربعة وغيرهم، اختلفوا في جملة من أحكام الدين، ولم يتفرقوا؛ لأنهم اختلفوا فيما أُذن لهم من اجتهاد فيه، أو لأن اختلافهم لم يكن داعية للتدابر.

وعليه؛ فإن اختلاف المذاهب الفقهية الأربعة لا يعد فرقة، فإذا أثار تدابراً؛ صار التقاطع والتدابر في ذلك بدعة إضافية، فالاختلاف والحالة هذه جائز بحسب وسع المجتهدين، والتدابر لا يجوز، أما إذا حال التمذهب دون الرجوع إلى الدليل من الكتاب والسنة، وتحكيمهما؛ صار بدعةً حقيقيةً؛ لأن الله يقول:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذٰلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً﴾ [النساء: ٥٩].

قال العدوي[1] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«لو عرف المصلح السياسي أن تحزيب الأمة، وجَعْلَها شيعاً تتقاتل في سبيل حزبيتها، وتنسى بذلك التحزُّبِ مصالحَها ومرافقَها؛ هو سنة عدوِّ الله فرعون، القدوة السيئة في الاستبداد، والمثل الواضح في الطغيان

---

(١) «دعوة الرسل إلى الله تعالى» (صفحة د)، وهذا الكتاب عظيم الفائدة، رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

والظلم، لو عرف الناس ذٰلك؛ لعلموا أن هٰذه الوسيلة هي التي يلجأ إليها الغاصب في تثبيت قدمه، وتمكين سياسته، يخلق في الأمة الأحزاب، ويغذي فيها معنى الحزبية بأساليبه الشيطانية، ثم يطلب منها بعد ذٰلك أن تتّحد ـ إذا هي طلبت إليه مصلحة من مصالحها ـ فيعلقها على محال، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة باسطة سلطانها، فإنها على حساب الحزبية تعيش، وبواسطتها تصل إلى ما تريد.

ففرعون قد فتح هٰذا الباب للغاصبين، وسنّ لهم هٰذه السنة، بل هو عمودهم الفقري، وربهم الأعلى[1]، يملي عليهم من وحيه الشيطاني ما يستبيحون به إرهاق الناس وإذلالهم:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]» ا. هـ.

وإليك سرّاً عظيماً من أسرار القرآن، فإن الله سبحانه وتعالى لما قال:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأمر بالمعروف كما قال ابن جرير:

«قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ فإنه يعني: تأمرون بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرائعه، و﴿تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ يعني: وتنهون عن الشرك بالله، وتكذيب رسوله، وعن العمل بما نهى عنه» ا. هـ.

---

(١) لو قال: ومربوبهم الأعلى؛ لكان أولى.

لما ذكر الله هٰذه الآية ـ ومعناها كما علمت في الشمول للدعوة إلى الله تعالى ـ أعقبها الله تعالى بقوله:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُولٰئِكَ لهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وفي هٰذا إشارة لطيفة وربط عظيم بين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والافتراق، فكأن هاتين الآيتين تشيران إلى أنه لا يمكن للأمة أن تقوم بهٰذا الواجب إلا إذا كانت متحدة متعاضدة متماسكة، أمة واحدة وجسد واحد، أما إذا افترقت الأمة، وتوازعتها النِّحَل والأهواء والفرق؛ فهي عاجزة بنفسها، فلا يمكن لها القيام بالواجب عليها نحو غيرها.

وإذا كان هٰذا من لطائف التنزيل؛ فإليك سرّاً آخر من أسرار السنة النبوية، وذٰلك في حديث أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول:

«استَوُوا، لا تخْتَلِفوا فتختلف قلوبكم».

رواه مسلم في باب: تسوية الصفوف، من كتاب الصلاة[1].

فتأمل كيف أن النبي ﷺ جعل الاختلاف بين منكب الأخ مع أخيه سبباً لاختلاف القلوب، فكيف بالاختلاف في أمر كليٍّ أو جزئيات متكاثرة تفكك الأمة إلى فرق وأحزاب؟!

● **التاسع عشر:**

من تأمل حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وجد أنه من

(١) «صحيح مسلم» (١ / ١٨٨).

معجزات النبي ﷺ بالإخبار عن المبتدعة قبل خروجهم، وإليك بيان هٰذا في كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إذ قال[1]:

«وعامة هٰذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة، كما كان الزهري يقول: كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة، وقال مالك:

«السنة سفينة نوح، من ركبها؛ نجا، ومن تخلف عنها؛ غرق».

وذٰلك أن السنة والشريعة والمنهاج هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله، والرسول هو الدليل الهادي الخِرِّيت في هٰذا الصراط؛ كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّرَاً وَنَذِيْرَاً . وَدَاعِيَاً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجَاً مُنِيْرَاً﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ . صِرَاطِ اللهِ الذي لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ أَلا إِلى اللهِ تَصِيْرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

وقال تعالى:

﴿وَأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) «الفتاوى» (٤ / ٥٧) مهم، «الاعتصام» (١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥) مهم.

وقال عبدالله بن مسعود: خط رسول الله ﷺ خطاً، وخطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال:

«هٰذا سبيلُ الله، وهٰذه سُبُلٌ، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليها».

ثم قرأ:

«﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾».

وإذا تأمل العاقل ـ الذي يرجو لقاء ربه ـ هٰذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، والرافضة، ومن أقرب منهم إلى السنة من أهل الكلام؛ مثل الكرَّامية والكلابية والأشعرية وغيرهم، وأن كلاًّ منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدعي أن سبيله هو الصواب؛ وجدت أنهم المراد بهذا المثال الذي ضربه المعصوم، الذي لا يتكلَّم عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى» ا. هـ.

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ:

«. . . عليكَ بالجَماعةِ، فإنَّما يأْكُلُ الذِّئبُ القاصِيَةَ»[1].

ooooo

(1) رواه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٢ / ١٠٦)، وأحمد (٥ / ١٩٦)، وابن خزيمة (١٤٨٦).

وسنده صحيح.

مضار الأحزاب على جماعة المسلمين[1]

إن انشقاق حزب فأكثر عن جماعة المسلمين يلوح متميزاً بـ (الرمز)، و(الشعار)، و(المنهج)، و(التخطيط)، أو بشيء من ذٰلك عن منهاج النبوة، مهما أحاط به من حسن النية وصفاء القصد؛ فإنه لا محل له من القبول في الإسلام من حيث مبدأ الانشقاق، أو بكليته، فدين الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فكما أنه لا محل بحال للاختلاف في الكتاب؛ فلا محل للاختلاف في نشره والدعوة إليه، إذ الغاية لا تسوِّغ الوسيلة، فالوسائل لها أحكام الغايات، فلا بد من سير الغاية والوسيلة معاً تحت سلطان النظر الشرعي؛ قبولاً ورداً.

وأصل الانشقاق إذا حللناه إلى أجزائه؛ وجدناه في جملته يتناثر بين الكفين كتناثر الرمل إلى ذرَّاته، وهٰذا بمقدار دائرة الفِرقة (الجماعة المتحزبة) شمولاً لأحكام الإسلام وتجزئة، وقرباً وبعداً عن منهاج النبوة، وهٰذه أيلولة حتمية لكل منشق عن أصله حسب مقياسه الثابت، وهو هنا

---

(١) كنت كتبت العنوان بلفظ: «سوالب الأحزاب»، ثم ضربت عليه؛ لأن هٰذا الشائع: «السوالب والإيجابيات» مولد لهٰذا المعنى، لم تستعمله العرب، ليتأمل!

منهاج النبوة في: الكتاب والسنة.

وغاية ما في أي حزب أو جماعة تنشق عن الجماعة ـ من الحسنات هي في نوعين:

«إما موافقة أهل السنة والحديث، وإما الرد على من خالف السنة والحديث، وبيان تناقض حججهم»[1].

فالكلام فيهم إنما هو في الانشقاق والانحراف باسم أو رسم.

أما التعدد للأحزاب؛ فإنه قد انضاف إلى الإجماع على منعه كلمة الحزبيين أنفسهم، ولبعض أرباب الأقلام النابهين منهم ـ ومن الذين لفظوا التحزب عن قناعة ودراية ـ كَلِماتٌ سِمَانٌ تصوِّرُ مَضارَّ تعدد الحزبية بكليتها.

وبعد؛ فإلى تحليل آثار ممارسة التحزب، تحت سلطان المقياس الثابت: الكتاب والسنة، طريق جماعة المسلمين؛ لترى كيف شكلت هٰذه المآخذ بذور التقلص والتلاشي لتلك الفرق في الماضي، ومدى تأثيرها في بعثرة مسيرة العمل الإسلامي في الدعوة إلى الله تعالى خالصة من كل شائبة، فإلى ذكر ما أمكن إدراكه من مضارِّها:

١ ـ اعلم أن كل ممارسة لعمل هنا لا تكون إلا بدافع، والدافع لا يكون إلا بقناعة، والقناعة لا بد أن تكون معتبرة، والاعتبار لا يعتد به إلا بدلالة الشرع عليه.

ولهٰذا؛ فاعتبر أي فرقة بعرض أصولها ومنهجها على أصول الشريعة

(١) «الفتاوى» (٤ / ١٢).

وقواعدها؛ لتعلم مدى انشقاقها عن جماعة المسلمين في اسم أو رسم، وإياك والنقد الجارح لأي فرقة؛ إلا على ضوء الوقوف على أصولها ومنهجها من كتبها وسيرها في العمل والدعوة، ثم عرضها على منهاج النبوة: الكتاب والسنة.

ومن وراء هٰذا تيقّظ لمبدإ النظرة التسويغية الحاملة لتسخير النصوص للدلالة على واقع جماعةٍ ما، وما لها من تنظيم و. . . إلخ، وهٰذا منهج معكوس، إذ الأصل شرعاً: العمل بالدليل.

ونعوذ بالله أن يكون لمسلم نصيب من قوله تعالى:

﴿وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيْقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِن الكِتَابِ ومَا هُو مِن الكِتَابِ ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ومَا هُو مِن عِنْدِ اللهِ ويَقُولُونَ علىَ اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

٢ ـ آفة الآفات: عقد الولاء والبراء عليها، وهذا المحور الحزبي للولاء والبراء هو عين المشاقَّة لله ولرسوله ﷺ، وهو نظير التحزُّب الذي محاه الإسلام.

وعليه؛ فإن الحزب؛ إن جعل أساس الولاء والبراء هو الإسلام، ولم يتميَّز عنه باسم ولا رسم؛ فهٰذا هو الإسلام دون أي تميز في شكل أو مضمون خارج عنه، وإن جعل الولاء والبراء على أمر أو أمور أُخَرَ؛ فهو صرف لقاعدة الإسلام (الولاء والبراء) عن متعلقها الشرعي، ومادتها الإسلامية: الإسلام.

وهٰذه من ضروب العصبية التي تكاثرت النصوص على نبذها ومحوها

من سجل المسلمين.

٣ - الفرقة في الإسلام لا تكون إلا على أساس الاختلاف في الكتاب، والاختلاف فيه هلكة في الحق، وشقاق بعيد، قال الله تعالى:

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بالحَقِّ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيْدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

فالإسلام لا يعرف الاختلاف في شيء من مجالاته، وما ذاك إلا لشموليَّته وكمالِه، وإذا أتى الخلاف؛ تصادمت الأفكارُ، واضطربت الآراءُ، فتنتج تفكُّك الأمة إلى أحزاب متصارِعة.

٤ - أن الفرق ضربت بقيود التحكم على سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فجعلت العنوان لمزاولة (العمل الإسلامي) و (التحرك)، داخل حزام الخط الإسلامي هو حمل بطاقة الحزب إن كان له بطاقة، أو الانتماء إليه فحسب، بينما الإسلام على منهاج النبوة يعُدُّ المنتمي إلى (الحركة الإسلامية: الدعوة إلى الله تعالى) كل من جاء بالشهادتين بحقهما، جاعلاً الإسلام محور حياته، ونقطة انطلاقه، لا يشترط أن يكون داخل جُدُرِ الأحزاب.

فانظر كيف حجبت الحزبية سعة الانتماء؛ كما حجبت وحدته من قبل.

٥ - الحزبية ترصد في أفئدة شباب الأمة الربط الشديد بين (الفكر الحزبي) و(العمل الإسلامي: الدعوة إلى الله)، أي: لا عمل إلا بحزب!!

فيبقى السؤال الذي لا جواب له متَّفق عليه عند الحزبيِّين: إلى أي حزب ينتمي المسلم؟!

نعم؛ إن منطق الإسلام يقول: منهاج النبوة هو مقياس التقويم، أما لدى حزبٍ ما فإن مقياس التقويم من الحدقة التي ينظر بها إليه.

٦ ـ وتساؤل آخر: هل الأولى بالمسلم أن ينطلق بالدعوة إلى الله من سبيل الإسلام الشمولي على منهاج النبوة أم من نافذة الحزبية بمنظارها الخاص؟!

٧ ـ الذي يريده الله من عباده: الدعوة إلى دينه، بنقلة المسلم من ظلام الوثنية إلى أنوار التوحيد، ومن مغارة المعصية إلى عز الطاعة... لا بنقل المسلم من أفق الإسلام الواسع الذي تستوعب رحمته جميع المسلمين على منازلهم إلى ضيق الشعار الحزبي، ولا النقل من محتوى جماعة المسلمين إلى حضار جماعةٍ من المسلمين، تقارع إخوانها، وتنبلج في نفسها:

﴿وإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٨ ـ الإذن بالأحزاب في الإسلام، فيه فتحُ بابٍ لا يُرَدُّ، بدخول أحزاب تحمل شعار الإسلام وهي حرب عليه، وكم رأينا ذٰلك في دعوات ضالة، بل كافرة؛ منها: القاديانية، البهائية، البريلوية... وكم التف حولها من المسلمين ما لا يحصيهم إلا الله تعالى، فأخرجهم من نور الإسلام إلى الضلال البعيد!

فانظر كيف تعيش تلك الفرق تحت مظلة الإسلام، وهو منها براء.

٩ ـ نسأل: هل يسمح الحزب بتعدد الأحزاب في البلدة الواحدة، وتوزع انتماءات أهلها؟

وماذا يصير إليه مصيرها من التمزق، والانشقاق، والمشاقة؟

فمَن قال: نعم؛ فهو جواب من لا يعقل، ولا يريد بالأمة خيراً.

وإن قال: لا؛ فكيف يسمح لنفسه بحزبه دون بقية الأحزاب؟! وكُلٌّ يدعي أنه يمثل الإسلام.

ليس أمامنا إلا لزوم جماعة المسلمين السائرين على مدارج النبوة: مَن كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

١٠ ـ بدعيتها: ولو لم يكن من أمر الحزبية التي تنفرد باسم أو رسم عن منهاج النبوة إلا أنها عمل مستحدَث، لم يُعْهَد في الصدر الأول؛ فليسعنا ما وسعهم.

وما هٰذه الحزبيات إلا امتداد لعامل التغريب من واقع الحياة المرة في أوروبا وأمريكا وروسيا[١]:

«فإنه لا محل في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة الفردية أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية، ولا محل للأثرة المنظمة التي نراها في أوروبا، وأمريكا، وفي روسيا، فهي في أوروبا أثرة حزب من الأحزاب، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين، وفي روسيا أثرة قلة آمنت

---

(١) كلام للندوي بواسطة كتاب «المذاهب والأفكار المعاصرة» (ص ٩ ـ ١٠) لمحمد حسن، وكتاب «هٰكذا ظهر جيل صلاح الدين وهٰكذا عادت القدس» (ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

بالشيوعية المتطرفة، وفرضت نفسها على الكثرة، وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة، ووحشية ربما لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة».

١١ ـ أي جماعة إسلامية هٰذه التي نرى ـ وبكل جلاء ـ أن الانتماء دائماً لا يعني التضحية في سبيل الله، بل نرى الكثير منهم هم أول من يكسب، وآخر من يضحِّي بنفسه أو ماله؟

ومع ذٰلك نجده يتمدح بهٰذا الانتماء!

وعليه؛ فإن واجب الدعوة إلى الله ليس بطاقات حزبية توزع، وإنما نزول في ميدان العمل.

١٢ ـ وكم كانت الأحزاب المبنية على تصعيد النظرة السياسية الخالية من القاعدة الإسلامية الملتزمة سبباً في التسلط على الإسلاميين وحصدهم، وتقهقر الدعوة، وقهر الدعاة، وكبت الانطلاقة في الدعوة إلى الله تعالى.

١٣ ـ في الحزبية تحجيم للإسلام، فلا ينظر إليه إلا من خلالها، فهو تجمع حول شخص، وقيادة معينة، في أطر مخصوصة، وربما كان الحزب لا يحمل من أنوار النبوة إلا بصيصاً ولا كمصباح راهب.

١٤ ـ أي فرقة قد أسرت نفسها بربقة (الرمز) وضيق (اللقب) و(الاسم)، والانفراد بـ(الشعار)؛ فهٰذا منها تحجر عن سمة الاسم الشامل:

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وعليه؛ فالوسم بالاسم الضيق عن دائرة الإسلام المتسعة، علة يجب التخلص منها، وَفقاً لمنهاج الإسلام، وإطاره العام.

ومضى بسط ذٰلك والتدليل عليه.

١٥ ـ ومن السنن الجارية أن الذين يعيشون داخل الجهاز الإسلامي الأم: جماعة المسلمين، لا يدخلهم الانشطار؛ بخلاف المنشق عنهم بمبدإ ما، فإنه ينمو وحده، ثم ينقسم على نفسه.

واعتبر هٰذا العمل في بعض الفرق التي انقسمت إلى أكثر من سبعين فرقة؛ كما في كتب الملل والنحل.

١٦ ـ هٰذه الجماعات متعددة، بل الجماعة في نفسها متعددة إلى جماعات غالباً، والتعدد دليل على الاختلاف، وتعدد التعدد دليل على ضراوة الخلاف، والاختلاف نتيجة حتمية لاضطراب الأصول التي تنفرد بها كل جماعة، وتدعو إليها، وتقيم جماعتها عليها، وهٰذا يناقض قاعدة الشرع المطردة من أن (الحق واحد لا يتعدد)، وكل واحدة تقيم حرب التشكيك بما لدى الأخرى، مدعية أن ما لديها هو الحق، وما لدى الأخرى هو الباطل كلًّا أو بعضاً.

وعليه؛ فلا يقضي على هٰذا السبب العظيم للتفرق وتمزيق الجماعة ـ بله الأمة ـ إلا الالتزام بمنهاج النبوة؛ كما درج عليه الصدر الأول، ومَن تبعهم بإحسان، فدع أيها المسلم بُنَيَّات الطريق.

١٧ ـ التعددُ[1] داعيةُ الفرقة، والفرقة سبب للمنازعة المورثة للفشل،

(١) «الاعتصام» (١ / ٨٧ ـ ٨٨).

والضعف والوهن، قال الله تعالى:

﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهٰذه نقلة جديدة من الاشتغال بجراحات الأمة على يد أعدائها إلى الاشتغال بجراحاتها على يد أبنائها في سلاسل من حروب في غير معركة، وانتصارات بغير عدو، تحتوي كدراً، وتفرق جهدها هدراً؟!

فالحزبية مظنة الفرقة، بل مئنة لها وللبغضاء بين أهل الإسلام، قال الله تعالى:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالذينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

١٨ ـ البدن الإسلامي مُثْخَنٌ بمحنة الأحزاب، حيث لا يهضمها، ولا يرضاها لَبوساً، فهو بها يعايش علة انتحار داخلي في الأمة، يشطب حرية الرأي فيها والإبداع، وتسريح النظرة الشمولية في الإسلام، ومن هنا تساقطت الكثرة من الفرق في الماضي، والمقتفون لأثرهم على الجادة سيضربون بأيديهم في الهواء، ولو بعد حين؛ لأن شطب هٰذه المقومات قضاء على قيامها.

١٩ ـ تعدد الحزبيات من مقاتل العمل الإسلامي، والتفاتة إلى سنة التاريخ في الأحداث لا في جهة أنها أخبار مرصودة وأكوام متراكمة من السير يُتَسَلَّى بها... ولكن الغرض الأساس: تحليل التاريخ، والأحداث، وكما رسم القرآن العظيم في قصص الماضين، وأَبْرَزَ منها وجوه العبر والاعتبار.

وعليه؛ فالالتفاتة إلى الفرق على ممرِّ التاريخ تعطي الناظر ماذا

خلفته في الصف الإسلامي من الفرقة والتمزق، وضعف المد الإسلامي، وقيام دولته.

وظواهر الأحوال اليوم، ومؤشرات الأمور، تعطي هٰذه الرؤية من خلال جحد ما لدى كل جماعة من الحق.

٢٠ ـ وكم كانت الحزبية حجاباً عن معرفة الحق؛ لداء التعصب لها، ودافع الكفاح عنها، وكم كانت سبباً لإضعاف الغيرة على التوحيد الخالص.

٢١ ـ إذا كانت الحزبية سبباً للفرقة، والفرقة أول معول يضرب في وحدة الأمة وتماسكها؛ فإن تعدد الأحزاب لتعدد مناهجها الفكرية واضطرابها سبب للهزائم التي تحل بالمسلمين، وأنى لأمة متفككة أن تصمد أمام مواجهات العِداء؟! قال الله تعالى:

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرَاً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ [الرعد: ١٣].

٢٢ ـ خلفية الاعتقال الفكري، بالحجر على العقلية الإسلامية والتفكير الإسلامي، إذ العيش في قالب الأحزاب همه الدفاع عنها، وتعميقها في النفوس، فاعتقلت بهٰذا الإنتاج الفكري في حدود الحزب، فلله كم في هٰذا من صد وصدود عن العيش مع الشريعة في شمولها ورحابتها!

٢٣ ـ وهٰـذا الاعتقـال الفكـري أفرز في مقابله الإرهاب الفكري بمعرفة ما لدى الآخرين للاستفادة من التجارب، وتصحيح المسار، وأعظم مولـدات هٰذا الإرهـاب: الانقطاع عن أنوار الدليل من الكتاب والسنة، والتمحور في فكرية الجماعة، والانغلاق في قالبها.

ففي الوقت الذي بدأ المسلمون يتخلصون من العصبية المذهبية الفروعية، أخذت الأحزاب تنفخ في التعصب من وجه آخر هو أشد تأثيراً وأثراً.

٢٤ ـ إن القيادة والزعامة في (الفرقة) و (الجماعة)؛ يطْغَى الاهتمام بها على (الفكرة) و (المنهج) و (الأصول) التي تُبنى عليها أصول الجماعة في دعوتها، وهٰذا يؤول إلى تبعية ماسخة للأفراد، منتجة للمنتمين على أنهم (جنـود للقيادة) لا للدعـوة والغـاية؟ وبـالتـالي تخـدم الحـزبيات الأشخاص، لا الأهداف والغايات للدعوة؟

والجماعة تقتضي وجود (الطاعة) لأميرها، وقد يكون الأمير مجهولاً، فالطاعة له بالواسطة، أو الوسائط، محافظة على (أمن الدعوة) ـ زعموا ـ!

٢٥ ـ في المعاصرة واقع يشهد باستقلال بعض الفرق للتمحور حول الذات لا حول الاعتقاد!!

وكم رأى الراؤون توظيفها للمصالح الشخصية فحسب!!

وانـظر إلى تنصيب (الملتـزم)، ومنحه مسؤولية، حتى لو كان من الجهل والضعف بمكان. . . !

٢٦ ـ ومن ظواهر الحزبية: إضْفَاءُ قسط وافر من القداسة على بلد

القائد المؤسس، وعلى مكان وفاته، ومَن تتبَّع عَلِم!

أما الدعاة المجدِّدون للتوحيد ـ على اختلاف أزمانهم وبلدانهم ـ؛ فإنك لن ترى لهٰذا أثراً.

وهٰـذه واحـدة يتـداعى فيها مَن شاء الله من عباده، وذٰلك لغياب الأصل في الدعوة إلى التوحيد.

٢٧ ـ ومن المـآخـذ أنهـا تستنفذ طاقاتها وتبذل إمكاناتها في تأييد الزاوية التي تعيش فيها تحت هٰذا الشعار، وهٰذا هدرٌ في بذل الجهد.

والواجب أن تكون الدعوة والكفاح في سبيل الإسلام تحت رسمه الذي ارتضاه الله لنا، لا تحت رسم مخترع مقطوع بينه وبين الصدر الأول بمراحل زمنية، فإنه ما تلبث أن تتفتَّت في غمرة الرسوم والألقاب التي لم يدل الشرع عليها، والتاريخ على هٰذا شهيد، وجماعة المسلمين عليه شهداء.

وقد مضى لهٰذا إشارة وتدليل.

وهٰـذا الشـأن لدى أهـل الأهواء قديم، قال الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الاعتصام» (١ / ١٦٢):

«وكذٰلك الأمر في كل مسألة فيها الهوى أولاً، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب أبداً، لاتساعه وتصرفه، واحتمـالاتهـا كثيرة، لكن يعلم الـراسخـون المراد منه من أوله إلى آخره وفحواه، أو بساط حاله أو قرائنه، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره، ويعتبر ما ابتنى عليه؛ زل في فهمه، وهو شأن من يأخذ الأدلة من أطراف العبارة

الشرعية، ولا ينظر بعضها ببعض، فيوشك أن يزل، وليس هٰذا من شأن الراسخين، وإنما هو من شأن من استعجل طلباً للمخرج في دعواه».

٢٨ ـ وفي الحزبية بعث حرب الكلمة، بنصب عوامل الانتصار والترجيح لأصول كل حزب، ورد ما يخالفه.

فعقد العصبية في سيرتها الأولى: «قولنا صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، يأتي اليوم في مسلاخ آخر، فخذ ما شئت من الوضع في استعمال النصوص بلَيِّ أعناقها عن دلالتها إلى التدليل بها على واقع الحزب... وهٰكذا من جهود التأييد، وتشييد الأدلة، والبحث عن السنة لواقع الحزب والجماعة فيه، والرد على المخالف، فالدين دين هٰذا الحزب وتلك الجماعة، وهٰذا استخدام لكلمة (الدين للواقع)، أي: لواقع الحزب وجماعته!!

والحق السوي أن الدين للواقع الموزون بميزان الشرع: الكتاب والسنة، فيُقَرُّ ما يُقِرُّ، ويُنْفَى ما يَنْفِي، لا في قالب الحزب بما رسم له من حُدُودٍ وأُطُرٍ يأباها ميزان الشرع ومنهاج النبوَّة[1].

٢٩ ـ أن الفرق أثارت في الأمة سَوْرَةَ التوتر والصراع، والتعصب الحزبي، والتاريخ على هٰذا شهيد، فلماذا ننشق من جديد؟

٣٠ ـ الحزبيات تنتج شركة مبيدة للإخاء الإسلامي بمنظوره العام، إذ تبني حجاباً كثيفاً دون ذٰلك، فلقاء مسلمَيْن من حزبين، قلب كل منهما معمق وَفق تخطيط ومنهج لا يلتقي مع الآخر في الشعار، أو في كل أو

---

(١) وانظر «معالم في الطريق» (ص ٩٥ ـ ٩٦).

بعض ما وراء الرمز والشعار، من الضرورة بمكان أن يكون شيء من التناكر في القلوب، وتبادل الطرف الحسير، فيكون لقاء مجاملة، أو شد مجاذبة.

أما اللقاء تحت شعار الإسلام، وأخوة الإيمان، ومحبة الإحسان، والحاكم السنة والقرآن؛ فهٰذا والله تمام الإخاء، وتآلف الأجناد.

٣١ - وفي الحزبية أيضاً تبديد للإخاء، فهي تخرق سياج الأخوة الإيمانية العامة التي تنتظم أهل القبلة من كل من جاء بالشهادتين حسب منازلهم منها، فالحزبية تنشىء أخوة دون أخوة، وهي تخصيص بعد تعميم، تأسيساً على مبادىء الحزب وشعاره!

وهل هٰذا إلا تفتيت للأخوة في الإسلام، وسلٌّ لسخائم العداء والصراع؟! وأخيراً تنتهي إلى تصفية الإخوان للإخوان؛ كما تصنعه الأحزاب السياسية في تصفية الرفاق للرفاق!

وانظر إلى التنازع بين الجماعات على ضم فرد أو أفراد، حتى ولو أدى إلى تزكية جماعة، والقدح في أخرى!

٣٢ - ومن ظواهر الصراع بين الجماعات التنابزُ بالألقاب، وهي سمة جاهلية محاها الإسلام، ثم أحيا رَسْمَها أَهْلُ الأهواء؛ كما في كتب الفرق، ومباحث الكلام، ومن هٰذا تسمية بعض الجماعات المعاصرة لمن ينتمي إليهم: (أخاً)، وأنه (فاهم)، و(ملتزم)، ومن لم ينتم إلى (الجماعة) باسم: (الآخرين)، ومَن أحبَّهم ولم ينْضَمَّ إليهم ينبزونه باسم: (متعاطف)، و(متعاون)، و(عادي)، و(طيب)، والعالم الذي لم ينتم إليهم يلقب بأنه (ليس واعياً)، أو (غير واع بالواقع)، و(غير فاهم للواقع)،

وإلصاق التهم الكاذبة بالعلماء، والتنفير منهم، والنظر إليهم بعين السخط والاستصغار، وهٰكذا تشييد جسر ممتد من الغمز واللمز لعلماء الأمة والتنقُّص بهم، بل وصل الحال إلى التكفير فما دونه مما يستخرجونه من قاموس منظارهم الحزبي، وما هٰذا من شهوة التكفير لدى بعض الفرق الغابرة ببعيد، والبعيد بمفاوز عن منهاج جماعة المسلمين، إذ يُخطِّئون مَن خالف الدليل لشبهة ولا يكفِّرون، أما أهل الأهواء فبالعكس.

ويقابل هٰذا مِن بعض الجماعات المعاصرة في طرف مناقض مَن يقول:

«نجتمع فيما اتَّفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه».

وهٰذا تقعيد حادث فاسد، إذ لا عذر لمن خالف في قواطع الأحكام في الإسلام، فإنه بإجماع المسلمين لا يسوغ العذر ولا التنازل عن مسلمات الاعتقاد، وكم من فرقة تنابذ أصلاً شرعياً وتجادل دونه بالباطل؟

وعليه؛ فإلى الطريق الوسط الحق، طريق جماعة المسلمين على منهاج النبوة.

٣٣ ـ الحزبية تقوم على التسليم بآراء الجماعة، وتوزيعها، ونشرها، وسد منافذ النظر والنقد لها، فضلاً عن مراجعتهم لجداول أعمالها، وهٰذا يناقض ما دعا إليه الشرع، وقد تقدم له ذكر في توظيف الجهاز الرقابي لدى أهل السنة والجماعة.

٣٤ ـ الأحزاب في ظاهرها وسائل منظمة للعمل الإسلامي، تحقيقاً للغاية التي من أجلها خُلِقَ الإنسان: العبودية لله سبحانه، والدعوة إليها،

لكنها تحوَّلت في الغالب إلى تشكُّل غريب في جسم الأمة، إلى غايات، إلى مراكز احتكار للعمل الإسلامي، بحكم ما تصدره من أحكام على الجماعات الأخرى.

إلى غاية تقوية للسلطة الشخصية بشاهد ما يبدو من صراع عليها، وجمع للأموال، واحتلال لمراكز النفوذ.

٣٥ ـ الحزبية تورث عقدة الاستعلاء الثقافي والتنظيمي، ولهٰذا ترى وتسمع رمي الآخرين بالسطحية، وضيق الأفق، والخلو من فقه الدعوة (يقصدون به: التنظيم الحزبي)، كل هٰذا على مذابح التعصب الحزبي، وما يفرزه من مفاهيم تضرب في الصف الداخلي للأمة.

ومن آثاره ذٰلك التهيُّب المريض من طرح ما لديهم من مفاهيم على العلماء، وفرارهم من مناقشة العلماء لهم؟

٣٦ ـ تعدُّدُ الأحزاب تعدُّدٌ في المناهج الفكرية لها، وهذا اضطراب في الحياة الفكرية في وسط الأمة الإسلامية، وكم لهٰذا من آثار في فساد الحياة الاجتماعية؛ من إثارة الشغب، والاضطراب، والتهارج، على أنقاض انهيار وحدة الأمة في منهجها الفكري على منهاج النبوة.

٣٧ ـ كم كانت الحزبية ـ وبخاصة السياسية منها ـ سبباً (لصرف الأنظار عن الأمراض الحقيقية التي تنخر في جسم الأمة من داخل، فتفرز فيها القابلية للتخلف والهزيمة. . .).

٣٨ ـ ومن أظهر مضارِّها أن تفتقد السير بالدعوة إلى الله تعالى في مراحلها على منهاج النبوة، فهي لا تعني ترسيخ الاعتقاد، ولا التفقه في

الدين، ولا نشر لسان العرب؟

فإن قيل: بلى. قيل: أرونا هٰذا بأدلته المادية، فأين الدعاة الذين صِفَتُهم في هٰذه الأحزاب: رسوخ الاعتقاد في التوحيد خالصاً من البدع والأهواء في القدوة وفي العمل، مبرزاً في فقهه، متضلعاً بلغة العرب ونصاعة بيانها؟ أين هٰؤلاء؟ وأين آثارهم العلمية والشبابية؟ وأين معاقل العلم التي صنعوا بها رجالاً؟

٣٩ ـ هٰذه الدعوات الحزبية مبنية على فكر وتخطيط وأُطُرٍ للجماعة، فكَّر بها منشؤوها، فهٰذه تحيا بقدر ما يوجد من قناعات بها، وتموت بموت القناعات بها.

أما الدعوة على منهاج النبوة إلى العودة إلى الكتاب والسنة؛ فهي الدعوة الباقية، فلا تموت وإن مات المجدد لها؛ لأنها هي دعوة الإسلام، دعوة الأنبياء إلى مدلول (لا إله إلا الله).

٤٠ ـ أي هٰذه الجماعات من موجبات الحمد لله تعالى؟ هل كما قال بعض الحنفية ـ وهو محمد بن محمد بن أحمد (ت **٧٩٢**)[1] ـ:

«الحمد لله الذي هدانا إلى اتِّباع الملة الحنيفية، وأرشدنا إلى سلوك طريق العلماء الحَنَفِيَّة»؟

ألا إن موجب الحمد ما دعا إليه الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره من العلماء:

«إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي».

---

(١) «الاتباع» لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٢).

إنه منهاج النبوة: الكتاب والسنة، فليعلم. والله المستعان.

٤١ ـ وفي الختـام اعتبر المآل في الانتماء الحزبي كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«إن الحياة بسبب اشتراك الناس في المعاش يعظم الرجل طائفته، فأما وقت الموت ـ أي: لإمام من أهل السنة ـ؛ فلا بد من الاعتراف بالحق من عموم الخلق...» ا. هـ.

وعليه؛ فإلى الدعوة إلى الله على منهاج النبوة لا غير.

ooooo

(١) «الفتاوى».

النتيجة الحكمية للانتماء

في ظل وحدانية الإسلام، وقواعده، وأصوله الضابطة العامة، والتي منها ما تقدم، يحصل بكل اطمئنان المنع شرعاً لتحزب أيٍّ (فرقة: جماعة) تحت مظلة الإسلام، تخالفه في شكل أو مضمون، في وسيلة أو غاية، بأمر كلي أو جزئي، إذ الحق واحد لا يتعدد، فلو كان للحق فِرَق؛ لم يقل ﷺ: «إلا واحدة»؛ لأن الاختلاف منفي عن الشريعة بإطلاق، والسبيل واحدة، فالوحدانية لا تقتضي الافتراق، ولا التبدد، والانقسام.

وعليه؛ فإن إنشاء أي حزب في الإسلام يخالفه بأمر كلي أو بجزئيات لا يجوز، ويترتب عليه عدم جواز الانتماء إليه.

ولنعتزل تلك الفرق كلها.

وعليه؛ فلا يجوز الانصهار مع راية أخرى تخالف راية التوحيد بأي وجه كان من وسيلة أو غاية.

ومعاذ الله أن تكون الدعوة على سنن الإسلام مظلة يدخل تحتها أي من أهل البدع والأهواء، فيغض النظر عن بدعهم وأهوائهم على حساب الدعوة.

وليس أمامنا إلا الإسلام في صفائه وسيرته الأولى على منهاج النبوة: الكتاب والسنة، نؤمن به، وندعو إليه، ونعمل به، ولا نخالفه باسم ولا رسم، ولا وسيلة ولا غاية، وهو المردُّ عند التنازع والاختلاف.

وبالجملة؛ فالدعوة بجميع مراحلها مضبوطة برسم الشرع، بمقاييسه وموازينه العادلة:

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ooooo

إلى طريق جماعة المسلمين

هٰذا مجمل الدعوة إلى الله تعالى في حقيقتها وصورتها على منهاج النبوة؛ مثمرة:

التوحيد الخالص.

والإيمان الصادق.

والعمل الصالح.

ووحدة الأمة مهما اختلفت شعوبها وألوانها يجمعها: الولاء والبراء في الله.

وتعميق الإسلام في نفوس الأمة في مجالاته كافة: العلمية، والأخلاقية، والتربوية، والسلوكية، والسياسية...

كلها تسير في قطار واحد لتحقيق غاية واحدة: العبودية لله تعالى في أطوار الحياة كافة.

فهٰذه المقاصد وأخوات لها آخِذٌ بعضها ببعض لصبغة المسلم - قلباً وقالباً، قولاً وفعلاً وتركاً - بشريعة الله، ودينه الإسلام، الذي لا يرضى من

أحد سواه .

ولهٰذا ؛ فلا يجوز التبرم من إحياء سنة مهجورة، مستحبة أو واجبة ، لأنه يجب إظهار الإسلام كاملاً ؛ بآدابه ، وأحكامه ، وأخلاقه ، أصوله وفروعه ، وما إلى ذٰلك من ثمرة الإيمان ، وشجرة التوحيد ، وغير جائز بحال أن ينفك بعضها عن بعض ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها

ولن تتحقق أهداف الدعوة :

١ ـ من العمل على هداية العباد .

٢ ـ وإقامة الشريعة بينهم .

٣ ـ وإظهار الحجة على الخلق .

٤ ـ والإعذار إلى الله تعالى .

إلا بالبيان الكامل لدين الله حسب الوسع والطاقة ، ولن يفوت على الداعي بَعْدُ نصف مراده من أهداف دعوته ؛ إما الهداية وإقامة الشريعة ، أو الإنذار والإعذار إلى الله تعالى .

ومن وراء ذٰلك التذكير بالمصير، وأن هناك وقفة بين يدي الله سبحانه ، ولا بد لها من زاد ، ولا زاد لها إلا التقوى .

ولا تلتفت بعد إلى إثارة الرهج ، وتصعيد النظر بأسئلة الانهزام أمام دعوات التغريب .

أين التنظيم؟! أين القوالب؟! أين الخطوط العامة؟! أين الترتيبات الإدارية؟! . . . وهٰكذا من النداءات التي نهايتها دعوة إلى تغيير حقيقة

الدعوة على منهاج النبوة.

وما علموا أن الدعوة الإسلامية على منهج النبوة لها غاية تتميز عن أية غاية لأي دعوة: تحقيق التوحيد وترسيخ الإيمان، ولهٰذا اتَّحدت حقيقتها ونـظامها، وسيلتها وغايتها، فلا يسوغ لنا بحال أن نُلْبس الدعوة إلى الله لباسَ تنظيم أجنبي عنها، واستفراغ الجهد فيه، مما يؤول بالهدم والإسقاط لأصول الدعوة وبُنيتها الأساسية وتفريق الكلمة.

فالدعوة تتكون من وسيلة وغاية.

فحقيقة الدعوة (الغاية) توقيفية، لا مجال للاجتهاد فيها.

حقيقة الدعوة أمر ثابت لا يتغير.

حقيقة الدعوة أمر ثابت لا يتحول.

حقيقة الدعوة أمر ثابت لا يتغير بتغير الأزمان والمكان والأحوال.

والأصل في وسائل نشر الدعوة كذٰلك التوقيف على منهاج النبوة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«مَن أحدث في أمرِنا هٰذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ».

وفي لفظ:

«مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ».

ومن رحمة الله تعالى بعباده، وبالغ حكمته في تشريعه لما يصلح الله به العباد والبلاد، أنه سبحانه لما شرع الجهاد، وشَرَعَ الدفاع، وشرَعَ الأمر بالمعـروف، وشـرعَ تغييرَ المنكرِ، وشرعَ النصيحةَ، وشرعَ الدعوةَ؛ شرعَ

للأمة وسائل متعدِّدة في ذٰلك، ولم يجعلها إلى عقولهم، بل أحالهم على ما شرعهم لهم:

فالجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، والجهاد بالقوة. . .

والدفاع كذٰلك. . .

وتغيير المنكر باليد، وهٰذا لذي سلطان؛ كرجال الحسبة.

وباللسان، ومثله القلم.

وبالقلب.

والأمر بالمعروف كذٰلك.

والنصيحة لأئمَّة المسلمين وعامتهم بالتي هي أحسن: مناصحة بالكلمة، ومناصحة بالكتابة، وتذكير بأيام الله.

والدعوة تكون بالوظائف المرتبة في الإسلام: خطب الجمع، والعيدين، والحج، وبالتعليم، ومجالس الذكر والإيمان.

والصدع بكلمة الحق: ببيانها حتى يكشف الله الغمة عن الأمة.

وبفتوى عالم معتبر، يغير الله بها الحال إلى أحسن، فتعمل ما لا تعمله الأحزاب في عقود.

وهٰكذا بعمل فردي من عالم بارع، ينشر علمه في الأمة: في إقليم، في ولاية، في مدينة، في قرية. . . وهٰكذا.

وبعمل جماعي على رسم منهاج النبوة لا غير؛ كجماعة الحسبة، ودور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراكز الدعوة، ورابطة العلماء،

من كل متأهل لكل عمل بحاله، فليست حال العالم كحال مَن دونه من طلبة العلم، ولا طالب علم كالمبتدىء، وهٰذا ليس كالجاهل، فهٰذه رتب ومنازل ودرجات:

﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣].

وكما أن المقصر عن رتبته مذموم، فالمتطاول إلى أعلى منها ـ قبل نضوجه ـ مذموم، بل سقوط مبكر.

ومن تقصير ذاك وتطاول هٰذا يحصل انحسار في مد الدعوة، ويؤول غالب الأمة إلى غثاء.

لكن قد ينضاف إليها ما تفرضه الحالة التي يعيش فيها المسلم، فيؤخذ ما صَفا بقدر ما يشد الوسيلة بما لا يعارض الشريعة باسم ولا رسم.

فليس لمسلم كائناً مَن كان أن يصل إلى افتتاح الدعوة بما يناهضها، فلا تغيير، ولا تحريف، ولا خلط، ولا تنازل عن أي شيء من دين الله وشرعه[1].

فمتى رأيت مَن ركب موجة من تلك الموجات؛ فاعلم أنه قد حاد عن منهاج النبوة، بقدر ما أخذ به من مخالفة في أمر كليٍّ أو جزئي، وأن هٰذا شذوذٌ عن طريق جماعة المسلمين.

وتقدير ذٰلك لأرباب الحل والعقد في الأمة ـ وهم العلماء العاملون ـ

---

(١) انظر مبحثاً مهماً لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في «إعلام الموقعين» (٤ / ٢٧٥ ـ ٣٧٦) أوله:

«وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شرعية وسياسية... إلخ».

لا لجهال المسلمين، ولا لمن تبنَّى الدعوة على جهل وضلال، ولا لمن أخذ بالدعوة وهو أول الناكثين لها.

والمهم هنا ـ وفي كل أمر ـ هو إعمال غاية التثبت، والتدبر للعواقب، وأن لا يكون الإقدام إلا بعد الصدور من حوض الشريعة المورود والميراث النبوي المعهود، في كل خطوة من خطوات الدعوة، وبذل الشورى مع المتأهلين لها بالعلم والعقل والروية.

والوسائل للدعوة هي في عصرنا وفيما قبله وبعده لا بد أن تكون هي وسائل الدعوة التي بُعِثَ بها النبي ﷺ، وبلغ بها الغاية، ولا تختلف في عصرنا مثلاً إلا في جوانب منها مرتبطة بأصولها التوقيفية، ومنها:

١ ـ المؤسسات الإعلامية ـ المقبولة شرعاً ـ بكل فروعها وأجزائها هي في العصر الحاضر من وسائل الدعوة.

وهي وسيلة كانت في بنية الدعوة منذ صدر الإسلام إذ كانت الدعوة تعتمد الكلمة.

فالوسيلة الإعلامية هي هي، لكنْ دَاخَلَها شيءٌ في أدائها، فلما كانت بالكلمة كفاحاً؛ كانت كذلك بالكلمة المسموعة بالواسطة، وبالمقروءة هكذا.

٢ ـ المؤسسات التعليمية، والمدارس النظامية؛ بمناهجها، وسبلها، ومراحلها.

فهذه لم تتجاوز وسيلة كانت في بنية الدعوة منذ صدر الإسلام، إذ كانت الدعوة تعتمد التعليم، وفي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ المشهور

في تعليم الإسلام والإيمان والإحسان مَثَلٌ رائع في طلائع الدعوة وهٰكذا.

فالوسيلة التعليمية اليوم هي ما كانت عليه بالأمس، لكنْ دَاخَلَها شيء من النهج في الأداء والبلاغ... وهٰكذا.

لكن هٰذا التغيير مأسور بمضمار الشرع، موزون بمقاييس الكتاب والسنة، فمتى اختل شيءٌ منه؛ وجب إبعاده والبراءة منه.

أما وسيلة محدَثة يُتَعَبَّدُ بها؛ فلا:

فمن الوسائل التي تهجّن الدعوة، وتثير الشَّغَب، وتجعل الأمة شيعاً، تلكم البيعة البدعية الممتدة من معين المتصوفة إلى مستحدث بعض الجماعات الإسلامية، وهٰكذا الأهواء يجر بعضها بعضاً.

وعليه؛ فاعلم أن في الإسلام بيعة واحدة في الإمامة العظمى، هي البيعة الجامعة، تنعقد بموافقة أهل الشوكة والحل والعقد في الأمة، سواء حصلت تلك البيعة بطريق محبوب إلى الله ورسوله ﷺ؛ كبيعة الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ، أو بطريق الغَلَبة، وهٰذه هي التي يحصل بها للإمام ولي أمر المسلمين مقاصد الولاية: القدرة، والسلطان، والشوكة، والمنعة، فيقيم حكم الإسلام؛ كإقامة الحدود، وقسمة الأموال، ونصب الولاة، وجهاد العدو، وإقامة الحج والأعياد، والجمع والجماعات، وغير ذٰلك من مقاصد الولاية المحدودة برسم الشرع.

ولهٰذا «إذا استبدّ رجلان دون الجماعة بمبايعة أحدهما الآخر؛ فذلك تظاهر منهما بشق العصا، واطِّراح للبناء على أساس ما يجب أن تكون عليه البيعة، فإن عقد لأحد فلا يكونن المعقود له واحداً منهما، وهما قد ارتكبا

تلك الفعلة المضغنة للجماعة من التهاون بأمرها، والاستغناء عن رأيها، لم يؤمن أن يقتلوهما»[1].

وهٰذا محل إجماع الأمة؛ كما قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره» (١ / ٢٧٣):

«فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد؛ فلا يجوز إجماعاً».

وعليها نصوص الترغيب بها، والترهيب من تركها ونكثها، وهي كثيرة معلومة.

وما زال أمر الأمة على هٰذا ماضياً، لا يعرِفون بيعة لمن هو دون مرتبة الإمامة الكبرى، ثم خلفت خلوف، وبانت أمور جرَّت على الأمة كباكب من البدع والأهواء، فجرَّت بدعة الطرقية (البيعة الرضائية)، ويقال: (البيعة الاستثنائية)، ويقال (عهد المشايخ)، ويقال: (عقد الطريق)، ويقال: (ميثاق الطريق).

وهٰذه بيعة بدعية محدثة، لا دليل عليها من كتاب، ولا سنة، ولا عمل صحابي.

وقد أنكرها جماعة من العلماء، وشدَّدوا النكير على فَعَلَتِها، وأنه لا أصل لها.

ثم انتقلت بمسلاخ آخر إلى بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، حتى بلغ الحال إلى وجود عدة جماعات من ورائها عدد من العهود والبيعات

(١) «الفائق» للزمخشري (٣ / ١٤٠).

في بلد واحد، وكل واحدة منها تدعو إلى ما هي عليه دون ما عليه الأخرى، فضاع من بينهم الميثاق النبوي لجماعة المسلمين «ما أنا عليه وأصحابي».

وهٰكذا تقطع جسم الأمة الإسلامية بين بيعات طرقية في أجواف الزوايا إلى بيعات حزبية في المواجهة، وصار الشباب في حيرة إلى أي حزب ينتمي، ولأي رئيس تنظيم يبايع، والبيعة عهد وعقد يقتضي الولاء والبراء، فهل إذا أتم بيعته يذهب إلى الجماعات الإسلامية يدعوها إلى (مثل ما هو عليه وحزبه)، أم ماذا؟!

فإن قيل: لا، الكل أخوة، ولا تقتضي التفريق؛ سقط مقصود البيعة، وصارت عهداً تقليديّاً لا معنى له؟

وإن قيل: نعم؛ صار هٰذا نهاية تشقيق الأمة، وتفرقها شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم رقاب بعض، وهٰذا عين ما نهى الله عنه ورسوله، وتوعد فاعله، ونص على من أحدثه.

وتفريق الأمة خطة فرعونية، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ الآية [القصص: ٤].

والخلاصة:

إن البيعة في الإسلام واحدة، من ذوي الشوكة (أهل الحل والعقد) لولي أمر المسلمين وسلطانهم، وإن ما دون ذٰلك من البيعات الطُّرُقِيَّة والحزبية في بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة كلها بيعات لا أصل لها في الشرع؛ لا من كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، ولا عمل صحابي،

ولا تابعي، فهي بيعات مبتَدَعة، وكل بدعة ضلالة، وكل بيعة لا أصل لها في الشـرع؛ فهي غير لازمة العهد، **فلا حرج ولا إثم في تركها ونكثها، بل الإثم في عقـدها**؛ لأن التعبد بها أمر محدَث لا أصل له، ناهيك عما يترتَّب عليها من تشقيق الأمة، وتفرقها شيعاً، وإثارة الفتن بينها، واستعداء بعضها على بعض، فهي خارجة عن حد الشرع سواء سميت بيعة أو عهداً أو عقداً.

وعلى هٰذا تواردت كلمة محققي العلماء في (بيعة الطرقية) الموجودة في عصرهم، إذ قابلوها بالإنكار؛ كما في كلام السيوطي في «الحاوي» (١ / ٢٥٣)، والسُّبكي في «الدين الخالص» (٦ / ٢٩٠)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٩٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٨ / ١٦ ـ ١٧).

وأقدم من هٰذا قصة مهمة لمطرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير ـ رضي الله عنه ـ في إنكاره على زيد بن صوحان كتاب معاهدة أعده مع آخرين؛ كما ساقها أبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٢٠٤)، وعنه الذهبي في «السير» (٤ / ١٩٢)[1].

وعليه؛ فبين مضار الفرق والأحزاب التي رأيت وبين غربة الدين في واقع المسلمين الذي نعايشه، فإن الطريق ـ يا عباد الله ـ إلى إنقاذ الأمة وانتشالها والعودة بها إلى حقيقة دينها، هو من الوضوح والجلاء، مما هو في

---

(١) وتجد هذه النقول وغيرها في بحوث معاصرة عن البيعة في الجماعات الإسلامية، في رسالة: «البيعة . . .» للشيخ علي بن حسن عبدالحميد، وفي «مجلة البلاغ» (عدد ٨٩١ عام ١٤٠٧هـ) تعقب لها، وهو كلام متهافت.

متناول كل مسلم فهمه ومعرفته، إذ إن دين الإسلام هو دين الفطرة، والفطرة لا غُول فيها ولا تعقيد ولا تأثيم، لكن الشأن في تأهيل حملته، وقيامهم في المواجهة.

ذٰلك الطريق هو برفع راية التوحيد لا غير، على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، فمَن تابعَهم بإحسان من أئمة العلم والدين، والولاة المصلحين.

وصدر الإسلام شاهد، وفي كل عصر شهيد:

و «ما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً».

و «لن يصلح آخر هٰذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وللإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ قولته الرائعة أيضاً:

«أَوَ كُلَّمَا جاءنا رجل أجدل من رجل؛ تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هٰؤلاء؟!».

رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٦ / ٣٢٤)، وعنه الذهبي في «السير» (٨ / ٨٨).

وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ما لم يعرفه البدريون؛ فليس من الدين».

كما في «الفتاوى» (٤ / ٥)، وانظر منها (٤ / ١٥٨).

وصدق النبي ﷺ إذ قال:

«تركتُكُم على مِثْلِ البيضاءِ...» الحديث.

إنه الصراط المستقيم، الكتاب والسنة، والصراط لا يكون إلا واضحاً مستقيماً لا عوج فيه:

أَمِـيْرُ الـمُـؤْمِـنِـيْنَ عَلَى صِرَاطٍ
إذا اعْـوَجَّ الـمَـوَارِدُ مُسْـتَـقِـيْمُ

قال الله تعالى:

﴿وأَنَّ هٰذا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولو قيل في بيان الطريق ذٰلك؛ لكفى، ولو قيل بعبارة أخرى: «تحكيم الكتاب والسنة، والدعوة إليهما، ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم، والسمع له والطاعة في الطاعة»؛ لكفى.

فيا أيها المسلم!

التزم منهاج النبوة في الكتاب والسنة؛ علماً، وعملاً، ودعوةً، والزم جماعة المسلمين مَن كان كذٰلك «على مثل ما أنا عليه وأصحابي»، والزم إمامهم المسلم في أي بلد ـ إن كان لهم إمام ـ بالسمع والطاعة في المعروف؛ ما لم تر كفراً بواحاً عندك عليه من الله برهان، والعملَ العملَ، على الجهر بحكمة ودراية بإعادة الحياة الإسلامية في المسلمين صافية من شوائب الشبهات والشهوات بعمل إسلامي ظاهر، لا في السراديب المظلمة.

ومع هٰذه الأجهزة الثلاثة: العلم، العمل، الدعوة والبلاغ، لا بد من رابع، وهو: جهاز المراقبة والمحاسبة؛ لتدارك ما يحصل من خطأ،

ومراجعة ما يتم من إنجاز، وإزالة ما يبدو من عوائق، كل ذٰلك فيما قد يبدو صغيراً ثم يكبر ويشتد، أما إذا غاب هٰذا الجهاز الرقابي فإن صف الدعوة يقع في خسائر جسيمة.

أيها المسلم!

إن العالم الكافر لا يهزه إلا وميض برق يلوح في أفئدة المسلمين على مدارج منهاج النبوة بأيدي السائرين إلى الله تعالى، بالعلم النافع يقيمون الحجة والبرهان، وبالعمل والالتزام ينيرون محجة الاقتداء والاتباع، وبالدعوة والجهاد يسهمون في مد الإسلام.

وقد ثبت في سجل التاريخ أن الدعوة إذا بدأت من خلايا القاعدة (الفرد) أخذت في النمو، حتى تكتسح في النهاية كل ظلمة.

واعتبر ما أقول لك أيها المسلم بحال انتشار الإسلام بصفائه وهدايته ونوره على يد الصدر الأول، فمن أخذ بهديهم واتبع أثرهم؛ فإنه لم ينتشر بهٰذا الوصف إلا على يد جماعة المسلمين، الذين لم يتميزوا عن خط الإسلام باسم ولا رسم، فلم ينتشر في زمن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وفتوحاتهم ـ مثلاً ـ بواسطة الأحزاب والجماعات المتميزة باسم أو رسم يخالف ما عليه الآخر، لكنه حزب الله واحد، لم ينقسم أمام حزب الشيطان، شعارهم: «قولوا لا إلٰه إلا الله تفلحوا».

وبعد؛ فإني سائل من يَحْجُرُ نفسه في (الانتماء الحزبي): إذا سقط ذٰلك الحزب وتمزَّق؛ فإلى أي جهة ينتمي المسلم؟!

إنه لا ملجأ من الله إلا إليه، إنه الانتماء إلى مَعين لا ينضب، وقوة

لا تهزم، وحق لا يتعدد، إلى الإسلام في شموله على مدارج السلف، في وحـدة انتمائهم إلى منهاج النبوة: الكتاب والسنة، في التزود بزادهم في سفرهم إلى الله تعالى، والدار الآخرة:

﴿وتَزَوَّدُوا فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ooooo

وختـــاماً

أيها المسلم!

أقـول لك: إن هٰذه الفرق والجماعات والأحزاب هي في الجملة تمثل القوارب الصغيرة أمام السفينة الماخرة العظيمة، فهل يستَقِلُّ القاربَ - خشية الغرقِ - مَن يجد السفينة الثابتة الجامعة؟!

ولذا قال مالك[1] - رحمه الله تعالى -:

«السنة سفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تخلَّف عنها غرق».

وكان الزهري - رحمه الله تعالى - يقول[2]:

«كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة».

ولـذا صار ذهـاب أهـل السنـة هو ذهاب أهل الإسلام؛ كما قال الأوزاعي - رحمه الله تعالى - في بيان معنى حديث الغربة[3]:

---

(١) «الفتاوى» (٤ / ٥٧).

(٢) «الفتاوى» (٤ / ٥٧).

(٣) «كشف الكربة» لابن رجب (ص ١٠).

«أمَا إنه ما يذهب أهل الإسلام، ولكن يذهب أهل السنة، حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد» ا. هـ.

فلا تستوحش يا عبدالله من قلة السالكين للصراط المستقيم: جادة أهل السنة، وإن استحكمت الغربة؛ فاعقد الأمل، وافتح باب الرجاء، فكل عسر يتلوه يسر، وكل أزمة يتبعها فرج:

اشْـتَـدِّي أَزْمَـةُ تَنْـفَـرِجِـي
قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بالـبَـلَجِ

ولا بأس من سياق مقاطع مختصرة من كلام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان حديث الغربة وحال الغرباء من «مدارج السالكين» (٣ / ١٩٤ ـ ٢٠١)، فيقول ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فهٰؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلَّتِهم في الناس جداً سُمُّوا: «غرباء»، فإن أكثر الناس على غير هٰذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هٰؤلاء غربة، ولكن هٰؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم:

﴿وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِيْ الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فأولٰئك هُمُ الغُرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة

الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم؛ كما قيل:

فَلَيْسَ غَرِيْبَاً مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ
وَلٰكِنَّ مَنْ تَنْأَيْنَ عَنْهُ غَرِيْبُ

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هٰذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه «بدأ غريباً»، وأنه «سيعود غريباً كما بدأ»، وأن أهله يصيرون غرباء.

وهٰذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هٰذه «الغربة» هم أهل الله حقاً، فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم.

فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم؛ بقوا في مكانهم، فيُقال لهم: «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحنُ أحوجُ إليهم منا اليوم، وإننا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهٰذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليُّه الله ورسوله والذين آمَنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه».

ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ومن صفات الغرباء ـ الذين غبطهم النبي ﷺ ـ التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وتَرْكُ ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذٰلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله

ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هٰؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهٰؤلاء هم القـابضـون على الجمر حقاً، وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائمٌ لهم، فلغربتهم بين هٰذا الخلق يعدُّونهم أهلَ شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي ﷺ: «هم النُّـزَّاع من القبائل»[1]: أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبـان، ويهـود وصـابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً، وكان مَن أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريباً في حَيِّه وقبيلته، وأهله وعشيرته، فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل، بل آحاداً منهم، تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقاً، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخَلَ الناس فيه أفواجاً، فزالت تلك الغربة عنهم.

ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ، بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جداً، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقةٌ واحدةٌ قليلةٌ جدّاً غَريبةٌ بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما

---

(١) وهي زيادة ضعيفة في الحديث، في إسنادها أبو إسحاق السَّبيعي، وهو مدلِّس مختلط.

جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضادُّ أهواءهم، ولذَّاتِهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هٰؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؛ كما قال النبي ﷺ:

«مُروا بالمعروف، وانْهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شُحّاً مطاعاً، وهوى متَّبعاً، ودُنيا مؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يَدَ لك به؛ فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامَّهُم، فإن وراءكم أيام صبر، الصابر فيهن كالقابض على الجمر».

ولهٰذا جعل للمسلم الصادق في هٰذا الوقت ـ إذا تمسك بدينه ـ أجر خمسين من الصحابة، ففي «سنن أبي داود والترمذي»[1] من حديث أبي ثعلبة الخُشَني قال:

سألت رسول الله ﷺ عن هٰذه الآية: **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾** [المائدة: ١٠٥]، فقال:

«بل ائتمروا بالمعروف، وتناهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوى متَّبعاً، ودُنيا مُؤثَرة، وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيهِ؛ فعليك بخاصة نفسك، ودع عنكَ العوامَّ، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهنَّ

---

(١) وسنده ضعيف.

ولقولِه: «. . . فإن من ورائكم أيام الصبر. . .» إلخ شواهدُ تحسِّنُهُ.

مثلُ قبضِ الجمرِ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله».

قلتُ: يا رسول الله! أجر خمسين منهم؟

قال: «أجر خمسين منكم».

وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكُّبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط؛ فليوطِّن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه؛ كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح لهم فيما هم عليه؛ فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نِسَبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة؛ فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع

إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكرٌ، والمنكرُ لديهم معروفٌ.

النوع الثاني من الغربة:

غربة مذمومة، وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب المفلحين وإن كثر أهلها، فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخْفَوْن على أهل السماء» ا. هـ. ملخصاً.

فالأدواءُ في الجاهلية القديمة أو الحديثة، والدواءُ في الدعوة على منهاج النبوة على يد الصادقين من عباده، وإن الواقع يفيد أن الأحزاب المنشقة عن جماعة المسلمين لا تصلح أن تكون ملاجىء تعالج فيها جراحات الأمة.

فَأتْلُ أيها المسلم قول الله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِن الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقوله سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقوله تعالى:

﴿أُولٰئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وإذا انفلق لك فجر اليقين؛ فاستمسك به، وليتق المرء ربه، ولينظر

قبل وضع القدم أين يضعها، وليلزم جماعة المسلمين، ويبتعد عن التحزب وتشقيق جماعتهم.

وإليك ما كتبه عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إلى بعض عماله:

«سلام عليك.

أما بعد؛ فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله، وترك ما أحدث المحدِثُون بعده مما جرت سنته، وكُفوا مؤونته.

ثم اعلم أنه لم تكن بدعة قط إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها، وعبرة فيها.

فعليك بلزوم السنة؛ فإنها بإذن الله لك عصمة، فإن السنة إنما سنَّها مَن قد علم ما في خلافها من الخطإ والزلل، والحمق والتعمق.

فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولَهُم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل ما فيه ـ لو كان ـ أحرى، فإنهم السابقون، ولئن كان الهدى ما أنتم عليه؛ لقد سبقتموهم إليه.

ولئن قلتَ: حدث بعدهم حدث؛ فما أحدثه إلا مَن خالف سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصِّر، ولا فوقهم محسِّر، لقد قصر عنهم أقوام فجَفَوا، وطمح عنهم آخرون فغَلَوا، وإنهم بين ذٰلك لعلى هدى مستقيم».

رواه ابن بطة في «الإبانة» (١ / ٣٢٢) (رقم ١٦٤)، واللاَّلَكَائِيّ برقم

(١٦).

وساق ابن بطة ـ رحمه الله تعالى ـ بسنده عن عمرو بن قيس المُلاَئِيّ قوله:

«إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة؛ فارْجُه، وإذا رأيته مع أهل البدع؛ فايأس منه، فإن الشاب على أول نشوئه».

ويقول أيضاً:

«إن الشاب لينشأ، فإن آثر أن يجالس أهل العلم؛ كاد أن يَسْلَمَ، وإن مال إلى غيرهم؛ كاد يعطب».

ثم قال ابن بطة ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فانظروا رحمكم الله من تصحَبون، وإلى مَن تجلسون، واعرفوا كل إنسانه بخِدْنِهِ، وكل أحد بصاحبه، أعاذنا الله وإياكم من صحبة المفتونين، ولا جعلنا وإياكم من إخوان العابثين، ولا من أقران الشياطين، وأستوهب الله لي ولكم عصمة من الضلال، وعافية من قبيح الفعال». ا. هـ.

ولذا؛ إن ابتُلِيتَ بقِرْنٍ مفارق لجماعة المسلمين باسم أو رسم، فقل له باطمئنان: «هٰذا فراق بيني وبينك»، وحيهلاً إلى طريق جماعة المسلمين على منهاج النبوة:

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«يد الله مع الجماعة، ومَن شذَّ شذَّ في النار».

رواه الترمذي[1].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«من فارق الجماعة شبراً؛ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه».

رواه الإمام أحمد، وأبو داود.

وفي الختام أرى التنبيه على أن المراد من هذا البحث هو استصلاح الأحوال:

بدلالة المسلمين على طريق جماعة المسلمين في الدعوة إلى الله تعالى على منهاج النبوة لا غير

وتحذيرهم من تشقيق جماعة المسلمين بالانتماءات إلى الفرق.

وتنبيه هذه الفرق: (الجماعات) بالالتفات إلى أخطائها، ونصحها بالرجوع إلى الدعوة على منهاج النبوة، على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ومن تبعهم بإحسان، والاجتماع على ذلك في جماعة واحدة، هي جماعة المسلمين.

وأن تتجرد من أمراض الشبهات، نابذة الفرق والتحزب؛ لتفوز بنصر الله في الأرض، والنجاة من عذابه في الآخرة.

وإن هذا التوجه إلى تقويم هذه الفرق: (الجماعات)، ودعوتها إلى الالتفات إلى مناهجها في الدعوة؛ لتصحح مسارها على أنوار الهدي

---

(١) والقطعة الأولى منه صحيحةٌ، أمّا الثانيةُ؛ فلا؛ كما قاله الشيخ الألباني في تعليقه على «صحيح الجامع الصغير» (١٨٤٨)، و«مشكاة المصابيح» (١٧٣).

المعصوم: الكتاب والسنة، لا يعني ذٰلك جحد ما لدى أي طائفة أو فرقة أو حزب أو جماعة من الحق، فإن واجب العدل والإنصاف يقضي بتأييد الحق، ونبذ الباطل، ومنابذة أهله، والبراءة من كل مخالَفَةٍ ومُخالِفٍ - كلٍّ بحسب ما لديه من خير وشر - حتى تؤوب تلك الفرق إلى جماعة المسلمين السائرة إلى الله والدار الآخرة على مدارج النبوة.

ولا أرى الصمت بعد هٰذا إلا أبلغ من الكلام.

وأستودع الله كلَّ مسلمٍ الذي لا تضيعُ ودائِعُه.

والحمد لله رب العالمين.

○○○○○

الخـــلاصـــــة
لأبحاث حكم الانتماء

تلخيص جُلّها فيما يلي :

١ - الدعوة إلى التزام (لغة العلم) من الأسماء والمصطلحات الشرعية، وأن استبدالها بالمُولَّد والدَّخِيْلِ مُنَابَذَةٌ للشرع في لباسه : أسمائـه الشرعية.
ومن هنا : صار المنع الشديد من الشعارات والألقاب المخترعة التي يعقد الولاء والبراء عليها، والتميز والانفصال للمنتمي إليها عن جماعة المسلمين : أهل السنة والجماعة.

٢ - من قواطع الأحكام في الاسلام : وجوب الدعوة إلى الإسلام ديناً قيماً على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، مرتكزة على نقطة الانطلاق : تأسيس التوحيد والعبودية الخالصة لله تعالى، من شوائب الوثنية والبدع والأهواء المضلة.
وهكذا تتتابع الدعوة في مراحلها على مدارج النبوة.

٣ - بما أن (**الاسلام**) دين واحد لا يتعدد، ولا يتجزأ، فكذلك جماعته واحدة لا تقبل التعدد، ولا التجزئة بحال، فلا يرتضي إلا جماعة واحده هي : (**جماعة المسلمين**) لاغير، مهما تعددت وتباعدت ديارهم.

٤ - قاعدة المواصفات لهذه الجماعة (جماعة المسلمين) (أهل السنة والجماعة) الانضواء تحت لواء الكتاب والسنة، والسير على منهاج النبوة لاغير. فلا

تخرج عنه بشكل ولا مضمون، ولا تقبل التشطير ولا التجزئة، ولا التبدد ولا الانقسام.

(ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم).

واعلم أن كل منضو تحت راية الشريعة يرى أنه على هدي الكتاب والسنة، فلا يُغترّ بالدعوى، ولكن يطبق ما لدى أي طائفة على الكتاب والسنة ليُعلم مدى ذلك.

٥ - مفهوم الدعوة لا يتحدد بالكلمة من الوعظ والارشاد، لكن كل واحد من القادرين عليها فهو داعية إلى الله في مجال عمله، فالقاضي، والمفتي، والمدرس ... هم دعاة متى ما أدوا الأمانة على وجهها، وأبرزوا صفحة الاسلام بيضاء نقية، فَيُظْهَرُ العدل، وتُقام الشريعة، و ينشر العلم.

وهكذا قد جعل الله لكل شيء قدرا، فكل بما كتب الله له، وما فُتح عليه فيه، وما يَلتقي مع قدرته:

فهذا في الوعظ والارشاد.

وهذا في البحث العلمي.

وهذا في الرد على أهل الأهواء وكشف شبههم.

وهذا في الدرس والتعليم.

وهذا في باب من أبواب البر والتعاون عليه كبناء المساجد.

وهكذا **جماعة أو فرادى** .. واذا تأملت طريقة السلف وفقههم للدعوة رأيتها لاتخرج عن هذا المفهوم، و ينتج منه سعة مفهوم الدعوة بكثرة مجالاتها، واختلافها باختلاف الأحوال، والأزمان والأمكنة والأشخاص، والقدرة والتمكن قوة وضعفا.

وهنـاك مـا يكتبه الله للعبد من القبول في الأرض، فكم رأينا من عالم ثنى ركبتـيـه مـعـلماً في مسجد، فالتف الطلاب حوله لِعِلْمِهِ لا حَوْلَ شَخْصِه، وكتـب الله لـه مـن الـنفع ما لا يُقَدَّرُ بوصف، وعاشت آثاره من بعده زمناً بـعـيـدا. وكـم رأيـنـا من آخر جوال في الآفاق، ركب المصاعب والأخطار وأثـره دون ذلـك، أو عـكـسـه. آجـر الله الجميع على صالح أعمالهم وحسن نياتهم.

٦ - كما أن الـقـضـاء والـفـتـيا والتدر يس لا يتولى أيا منها الا المتأهل، فالدعوة بمـفـهـومـها الشائع لا يقوم بها إلا من كان كذلك كل بحسب ما يدعو إليه، ومـا فـي مـواجـهـتـه مـن واقع، فليس التأهيل لِمُدَرِّسِ الكُتَّاب مثله لمن هو فـوقـه، ولا لـقاضي الاثبات مثله لقاضي الجنايات، وهكذا فليس التأهيل للقائـم بالدعوة في قريته مثله للقائـم بها في مدينة، ولا هذا مثل القائـم بها في مواجهة الماديين والملحدين.

وهـنـا أدعو وأؤكد على من ضعف تأهله وتمكنه من العلم ألا يروم ما كان فوق قدرته، ولا يستوعبه تحصيله، وإن فعل فله مردودات ضارة على الدعوة، وهذا من مواطن الاثم.

٧ - الـعـلماء الـعاملون هم عمدة أهل الحل والعقد في الأمة، وهم واسطة البلاغ للدعوة، فالواجب عليهم عظيم والوقيعة فيهم بغير حق إثم كبير.

وان واجـبـاتـهـم الدعوية متعددة، وعلى مناحي مختلفة، كل بما كتب الله له مـن الاسـتـطـاعة والقدرة، وما في مواجهته من واقع، فينبغي أن يكون كُلٌّ واقـتـداره وفـنـه الـذى بـرع فـيـه : مـفـسـر، محدث، فقيه، خطيب، مناظر، واعظ، محتسب .. وهكذا.

وفي حديث حذيفه - رضي الله عنه - كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني - الحديث.

قال الحافظ ابن حجر نقلاً عن ابن ابي جمرة (في الحديث حكمه الله في عباده كيف أقام كلاً منهم فيما شاء فحبب إلى اكثر الصحابه السؤال عن وجوه الخير ليعملوا بها و يبلغوها غيرهم، وحبب لحذيفه السؤال عن الشر ليجتنبه و يكون سبباً في دفعه عمن أراد الله له النجاة) انتهى فتح الباري ١٣/٣٧.

وهذا كالحال في المعنى الصحيح لحديث ابي هريره - رضي الله عنه - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها) رواه ابوداود.

فليس المراد به واحداً فقط فإن (مَنْ) تقع على الواحد والجمع، فقد يكون التجديد بواحد و بأكثر، مابين شجاع بالحرب، وفقيه، ومفسر، ومحدث، وهكذا (١).

ومن تعددت فنونه ومشاركاته فهذا هو العالم الجامع؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وانظر إلى دقيق فقه السلف في الدعوة، ومنه ما ذكره ابن عبدالبر في التمهيد، قال: كتب العمري العابد إلى مالك - رحمه الله - يحضه على الانفراد والعمل، و يرغبه عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: أن الله - تعالى - قَسَّم الأعمال كما قَسَّم الأرزاق، فرب رجل فتح الله له

(١) انظر جامع الأصول ٣٢٠/١١، وفتح الباري ٢٥١/١٣، ومقدمة «التقريب لفقه ابن القيم» لراقمه.

في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد، ولم يفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أشرف أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله - عز وجل - فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر، ويجب على كل منا أن يرضى بما قسم له، والسلام . ا.هـ. من مختصر منهاج القاصدين، ص : ٤٢، الحاشية بتحقيق : الأرناؤوطين.

وعليه : فان من أعظم مواطن الغلط والفهم الخاطىء واللغط فصل هذه الأصول والقنوات الدعوية عن مسمى الدعوة الاسلامية.

ومن أرأس مهامهم : مناصحة الولاة والأمراء ونوابهم ودعوتهم الى الخير وحثهم عليه فإن ولي الأمر اذا صلحت حاله وحال بطانته استقامت تدابيره فى الأمه على الاسلام والسنة.

٨ - الانحياز والانفصال من فرد أو جماعة عن (جماعة المسلمين) (أهل السنة والجماعة) بمخالفة شرعية في اعتقاد أو تعبّد أو سلوك، مخترعة شعاراً أو أصولا أو قواعد تجعلها قوانين للجماعة والمنتمين اليها، وتعقد الولاء والبراء عليها، وعلى جماعتها، وعلى شعارها وحمله، أو بشيء من ذلك، فهذا انفصال عن جماعة المسلمين، والتي تعتمده فرقة من الفرق البدعية تقترب من الصراط، وتبتعد، بقدر ما لديها من مخالفة أو مخالفات.

وهذا الانفصال خسارة وانكسار في رأس مال المسلمين، وما وحدة جماعتهم الا بوحدة اسلامهم في مدلول (كلمة التوحيد).

وكم في الفرقة والتحزب عن جماعة المسلمين من مضار وعوائق عن المد الاسلامي بسبب الصراع الداخلي.

وبناء على هذا : فأي راية تخالف راية التوحيد بأي وجه من وجوة المخالفة لا يجوز عقدها، ولا الانصهار والانتماء اليها، وهذا حكم ينتظم جميع المسلمين فوق أى أرض، وتحت أى سماء.

واختبر كل فرقة (جماعة) بعرض أصولها ودعوتها على الكتاب والسنة لترى النتيجة، هل هي فرقة، أو جماعة المسلمين ؟.

٩ - منابذة كل جماعة منحرفة عن الإسلام وإن أعلنته شعاراً لها كالقاديانية، وغيرها.

وأما أي جماعة خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً فنواليها بقدر ما لديها من صلاح، ونتبرء مما لديها من مخالفات، ولا يجوز بحال الانتماء إليها. ونعمل جاهدين إلى استصلاح حالها بدعوتها إلى «راية التوحيد» وترك التحرب، ونبذ المخالفات وطرح الالتفاف حول الأشخاص والبشارة بالزعامات.

١٠ - إذا تجاوزنا تشقيق جماعة المسلمين إلى أحزاب وجماعات، وانطلقنا من قاعدة التعاون والنصرة في الإسلام فاعلم أن الدعوة إلى الله بمفهومها العام كما تكون من الفرد تكون بتعاون جماعة المسلمين أو من شاء الله منهم، فالقيام بالدعوة رتب ومنازل يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأماكن والأشخاص. ويمكن تصنيفها حسب أحوال المسلمين اليوم على ما يلي :

أ- اذا كان المسلم في بلد اسلامي ولايته شرعية، والشريعة فيه قائمة، ودعوة التوحيد فيه ظاهرة، فأهله هم (جماعة المسلمين) في تلك البلاد،

وعلى أهل العلم منهم واجب الدعوة والبلاغ، وألا يكونوا بمعزل عن واقع أمتهم، فليتابعوا الأحداث و يرصدوا الأمور ليردوا كل زحف وتموّج يغزو البلاد، وليشغلوا الوظائف الشرعية: الدعوة، الحسبة، التعاون على البر والتقوى، اجتماع الكلمة، صد الغارات العقدية والأخلاقية والسلوكية، **وليهبوا أفرادا وجماعات** كل بما يسر الله له، وما يكون الأصلح للأحوال، والأنفع للأمة، فجماعة للحسبة، وجماعة للدعوة والارشاد، وأخرى لمتابعة الغزو الفكرى وصده، وهكذا ...، سواء كانوا **جماعة بذلك أو جماعات، أو فردا أو أفرادا**، لكن ذلك مشروط - وأيم الله - بألا يكون فيه تحيز وانفصال عن جماعتهم الأصل (جماعة المسلمين، أهل السنة والجماعة).

فلا يجوز لأحد بحال أن ينفصل و ينحاز عن جماعة المسلمين هذه بدعوة يعقد الولاء والبراء على ما انفصل فيه.

ومتى داخلت الحزبية والفرقة من هذا وصفه، فهذا مشاقة لله ورسوله، وهو ايذان بتشقيق وحدة المسلمين إلى فرق وجماعات متآكلة.
وعلى من بسط الله يده مناصرة الدعاة إلى الله على بصيرة. ولا يجوز له أن يوصل الى هؤلاء أذى بوقف تعاونهم على الخير، ونهيهم عن المنكر، كما أن على من وفقه الله للقيام بهذا الواجب العظيم أن يبذل جهده في حدود القدرة، وألا ينازع الأمر أهله، مالم ير كفرا بواحا.

ب - واذا كان المسلم في بلد اسلامي ولايته غير شرعية: كافرة أو ضالة، فأقول:

معلومة أحوال المسلمين في جل بلدان العالم الاسلامي، وما يدور في

ديارهم من الفرق الاسلامية الضالة، مع الأحزاب الملحدة من شيوعية، وما سونية ...، الواجب الشرعي هنا : على من أنار الله بصيرته بنور التوحيد، وهدى القرآن والسنة، أن يعتزل هذه الفرق كلها، وأن يعتصم بالله، ومن يعتصم بالله قد هدى الى صراط مستقيم، وأن يقيم سوق الدعوة الى التوحيد الخالص، والتبصير بالوظائف الشرعية من الجهاد ونصاب الاحتساب والعلم والعمل ... وأن ينضم الأخ الى أخيه، وهكذا؛ ليكونوا بهذا جماعة المسلمين في تلك البلاد التي هي الأصل لسلوكها جادة السلف الصالح على أنوار الكتاب والسنة، ومن سواهم ففرق وأحزاب حتى يؤبوا الى جادة الفرقة الناجية، وأن يكونوا تحت توجيهات علمائهم العاملين الموثوق بعلمهم وفضلهم ورشادهم، وأن تتعدد جهودهم في الدعوة في أى مجال يجدون اليه سبيلاً. وانه بحكم تبدد العالم الاسلامي الى دول، وبحكم ما عليها من ولايات مختلفة المشارب، وبحكم ما تعايشه الشعوب من موجات الفتن والأهواء المضلة، فان لكل بلد ملابساته وظروفه، وعلى أهل الرأى والمشورة من علماء البلاد ومفكريهم أن يسلكوا بجماعة المسلمين ما يعود عليهم بالخير والأصلح لحالهم، وامتداد دعوتهم وكسبهم المتواصل لصالح الاسلام وجماعة المسلمين، وأن يكون تصرفهم محفوفا بأدلة الشرع لاغير.

ج - أما حال المسلمين الذين يقيمون اقامة دائمة أو عارضة في بلاد الكفر، فعلى هؤلاء :

١ - أن يلتئم شملهم مشكلّين بذلك (جماعة المسلمين) أهل السنة والجماعة في هذه البلاد.

وان تـعـددت المـشارب للمسلمين في هذه البلاد، فالزم منها جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة.

٢ - المـنع البات للتبدّد والانقسام. والحاكم لوحدتهم، المانع من فرقتهم : هو الاعتصام بالكتاب، والسنة، اعتقادا وقولا وعملا ودعوة.

٣ - الحـرص مـا أمـكـن عـلـى احتضان كل وافد، حتى لا تتلقفه أمم الكفر ودعاة الضلالة، وهواة الفجور، وأرباب الفسوق.

٤ - الـعـمل على مد رواق الاسلام في هذه البلاد - ما أمكن ذلك - ليروا الاسلام في صفائه ونوره.

ومعـلـوم أن لـكـل دولـة كـافـرة مـن الـقـوانين والـنـظم ما يكون بأسا على تلك الأقـلـيـات، ومنـهـا : ما فيه توسعة عليهم، فيستطيع أهل العلم والايمان، وأرباب الـرأى والمشورة أن يسلكوا بدعوتهم من المجر يات المصلحية ما يحقق لهم الصلاح والأصـلـح، و يـدفـع عنـهـم الفساد والاضرار بهم، وما يكسب الدعوة انتشارا وقوة بلاغ.

وإذا كـانـت هـذه هـي أحـوال المـسـلـمين بحكم انقسامهم الجغرافيّ من خلال واقعهم فان على المسلمين ان يكونوا كما اراده الله منهم أمة واحدة يـقـومـون بـواجـب التعاون والترابط والنصرة والمشورة ومدّ روابط الاخاء مـهـما تـعـددت ديارهم وتناءت بلدانهم وأن يعيش المسلم آلام اخوانه في اي بلد كانوا و يعمل جاهدا لما فيه نصرتهم واستصلاح حالهم.

١١ - وأما وسائل الدعوة، فنحن متعبدون بها، والعبادات سبيلها التوقيف على النصوص وموادرها ونحن مؤمنون غاية الإيمان من أن النبي صلى الله عليه وسلم. ما لحق بالرفيق الأعلى إلا وقد بين كل وسيلة دعوية غاية البيان كالشأن في أمور الشريعة كافة فلنترسَّم مدارج النبوة.

أما «المستجدات» من «الأوصاف» فهي «أوعية» و «وسائط» للوسائل متى كانت مقبولة في دائرة الشرع، فهذه تتبدل في كل زمان ومكان بحسبه.

مثل «التعليم» كان في رحاب المساجد، ثم امتد إلى أروقة المدارس، والمعاهد، والجامعات، ونحوها من الأمور المصلحية. فالوسيلة «التعليم» هي هي لم تتغير لكن الوعاء لها وهو أن يكون في «المدرسة» فهذا لامحذور فيه ولا اعتراض عليه.

ومثلـه : الدعوة بالكلمة كانت كفاحاً، وبعد اختراع الآلات، صارت أوعيه لها.

وهكذا. هذه خلاصة جل مباحث هذا الكتاب، وأخيراً أقول :

أيها الناس :

أوصيكم ونفسي بالقيام بهذا الواجب العظيم (الدعوة إلى الله) منضوين تحت لواء الكتاب والسنة لاغير، في قالب (جماعة المسلمين) أهل السنة والجماعة لاغير. وأي أمر يعرض لكم فاعرضوه على الكتاب والسنة، فإن قام عليه دليل سالم من معارض وإلا فأعرضوا عنه.

واحذروا لايستجرينكم الشيطان إلى صغار المحدثات فإنها تربوا حتى تكون كبارا.

والله المستعان

المؤلف

بكر أبو زيد

تنبيه : وضعنا الفهرس في أول الكتاب .

من مطبوعات مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي بالقاهرة . ت : ٥٨٦٨٦٠٥